[illegible] الواحدي محمد [illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] التاسع [illegible]
اثنين وتسعين وسنة [illegible]
الغني الى [illegible]

٤١١

كتاب الاخلاق والسير تأليف ابي محمد ابن حزم
صاحب الملل والنحل الكبير
غير ملل النحل للشهرستاني

بالبحث واثناء الفهرسة تبين أن :-
عنوان الكتاب : مداواة النفوس فى تهذيب الاخلاق .
اسم المؤلف : على بن أحمد بن سعيد ، ابو محمد ،
المعروف بابن حزم ت سنة ٤٥٦ هـ .

الشيخ الشافعى
عبد الله حسن
١٩٩١/٧/٢٠م.

خط اندلسي قديم
٦٦ ورقة
٢١×١٥
مسطرة ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

كتاب الأخلاق والسير

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه
الحمد لله على عظيم منّه وصلى الله على محمد عبده وخاتم
أنبيائه ورسله وسلم تسليما وأبرأ إليه تعالى من الحول
والقوة وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع
المخاوف والمكاره ويخلص في الأخرى من كل هول
ومضيق **أما بعد** فإني جمعت في كتابي هذا
معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور
الأيام وتعاقب الأحوال بما منحني عز وجل من التهمم
بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى

أنفقت في ذلك أكثر عمري وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له
والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر
النفوس وعلى الازدياد من فضول المال وزممت كل
ما سبرت من ذلك بالكتاب لينفع الله تعالى من يشاء
من عباده ممن يصل إليه مما أتعبت فيه نفسي وأجهدتها
فيه وأطلت فيه فكري فيأخذه عفوا وأهد
إليه هنيئا فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد
الأملاك إذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله
وأنا راج من الله تعالى في ذلك أعظم الأجر لنيتي
في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة
علل نفوسهم وبالله أستعين

فصل في مداواة النفوس
وإصلاح الأخلاق

لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه ولذة الحكيم
بحكمته، ولذة المجتهد لله تعالى باجتهاده، أعظم من
لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطئ بوطئه
والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والآمر بأمره.
وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل
واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهمك
فيها، يحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها
وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم
في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف
الآخر. **إذا** تعقبت الأمور كلها فسدت عليك
وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى
أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل
أمل ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما

بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيئين إلا
العمل لله عز وجل فعقباه على كل حال سرور في عاجل
وآجل، أما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وإنك
به معظم من العدو والصديق، وأما في الآجل فالجنة.
تطلبت غرضا استوى الناس كلهم في استحسانه
وفي طلبه فلم أجده إلا واحدا وهو طرد الهم، فلما
تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه
فقط ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف
أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لا
يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرده، ولا ينطقون
بكلمة أصلا إلا فيما يعانون إزاحته عن أنفسهم، فمن
مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب
وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره، فطرد الهم

مذهب فإن بعث الأمم كلها من خلق الله تعالى
العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء وبعاقبة عالم
الحساب على أن لا يعتمدوا بشغلهم شيئا سواه
وكل غرض عنه، وفي الناس من لا يستحسنه إذ
في الناس من لا يد له فلا يعمل للآخرة ومن الناس
من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق
وفي الناس من يوثر الخمول بهواه وإرادته على بعض
الصوفية وفي الناس من لا يريد المال ويوثر عدمه على
وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تلاهم
من الزهاد والفلاسفة ومن الناس من يبغض اللذات
بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين
فقد المال على اقتنائه ومن الناس من يوثر الجهل على
العلم كأكثر من ترى من العامة ومنه من أغراض

الناس التي لا غرض لهم سواها وليس في العالم من
كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده
عن نفسه فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع
وانكشف إلي هذا السر العجيب وأنار الله تعالى لعيني
هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل موطئة على الحقيقة
إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع
نوع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح
على السعي له فلم أجدها إلا التوجه إلى الله تعالى
بالعمل للآخرة وإلا فإنما طلب المال طلابه ليطردوا
به عن أنفسهم هم الفقر وإنما الصيت من طلبه طلب
ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها وإنما
طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها
وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به هم الجهل وإنما

هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب
تعللا ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب
أحوال العالم عنه وإنما أكل من أكل وشرب من
شرب ونكح من نكح ولبس من لبس ولعب من لعب
واكتن من اكتن وركب من ركب ومشى من مشى وتودع
من تودع ليطردوا عن أنفسهم هم أضداد هذه
الأحوال وسائر الهموم **وفي كل** ما ذكرنا
لمن تدبره هموم حادثة لا بد من عوارض تعرض في
خلالها وتعذر ما يتعذر منها وذهاب ما وجد منها
والعجز عنه ببعض الآفات الكائنة وأيضا نتائج
سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك
من خوف منافس أو طعن حاسد أو اختلاس راغب
أو اقتناء عدو مع الذم والإثم وغير ذلك ه

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل
عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهم
على الحقيقة ووجدت العامل للآخرة إن بلي بمكروه
في تلك السبيل لم يهتم بل يسر إذ رجاؤه في عاقبة
ما ينال منه عون له على ما يطلب وزائد في الغرض
الذي إياه يقصد ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله
عائق لم يهتم إذ ليس مؤاخذا بذلك فهو غير [illegible]
فيما يطلب ووجدته إن قصد بالأذى سر وإن [illegible]
نكبة سر وإن تعب فيما سلك فيه سر فهو في
سرور متصل أبدا وغيره بخلاف ذلك أبدا ه
فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم
وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى فما
عدا هذا فضلال وسخف **لا تبذل** نفسك إلا فيما

عن أغلاهما وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل
في دعاء إلى حق وفي حماية الحريم وفي دفع هوان
لم يوجبه عليك خالقك عز وجل وفي نصر مظلوم
وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى
لا مروءة لمن لا دين له العاقل لا يرى لنفسه ثمنا
إلا الجنة لإبليس في ذم الرياء حبالة وذلك أنه
رب ممتنع من فعل خير خوف أن يظن به الرياء

باب عظيم

من أنواع العقل والراحة وهو اطراح المبالاة بكلام
الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل
هذا باب العقل كله والراحة كلها من قدر أنه
يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون من
حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن
آلمته في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه
أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه لأن مدحهم
إياه إن كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه
العجب فأفسد بذلك فضائله وإن كان بباطل فبلغه
فسر فقد صار مسرورا بالكذب وهذا نقص شديد
وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان
ذلك سببا إلى تجنبه ما يعاب منه وهذا حظ عظيم
لا يزهد فيه إلا ناقص وإن كان بباطل فبلغه فصبر
اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر وكان مع ذلك
غانما لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى
بها في دار الجزاء أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم
يتعب فيها ولا تكلفها وهذا حظ عظيم لا يزهد
فيه إلا مجنون وأما إن لم يبلغه مدح الناس

إياه فكلامهم وسكوتهم سواء وليس كذلك ذمهم
إياه لأنه غانم للأجر على كل حال بلغه ذمهم أو لم
يبلغه **ولولا** قول رسول الله صلى الله عليه
وسلم في الثناء الحسن ذلك عاجل بشرى المومن
لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل أكثر من
رغبته في المدح بالحق ولكن إذ جاء هذا القول
فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل فإنما تجب البشرى
بما في الممدوح لا بنفس المدح **ليس** بين الفضائل
والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس
وأنسها فقط فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل
والطاعات ونفرت عن الرذائل والمعاصي والشقي من
أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت عن الفضائل
والطاعات وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه

طالب الآخرة ليفوز في الآخرة متشبه بالملائكة
وطالب الشر متشبه بالشياطين وطالب الصوت والغلبة
متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم
وطالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبات والنوافل
المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء
من الحيوان شبه ولكنه يشبه الغدران التي في
الكهوف في المواضع الوعرة لا ينتفع بها شيء من
الحيوان **فالعاقل** لا يغتبط بصفة يفوقه
فيها سبع أو بهيمة أو جماد وإنما يغتبط بتقدمه
في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع
والبهائم والجمادات وهي التمييز الذي يشارك
فيه الملائكة **فمن** سر بشجاعته التي يضعها
في غير حقها لله عز وجل فليعلم أن النمر أجرأ

منه وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه د
ومن يتيه بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل
أقوى منه جسما **ومن** يتيه بحمله الأثقال فليعلم
أن الحمار أحمل منه **ومن** يتيه بسرعة عدوه فليعلم
أن الكلب والأرنب أسرع عدوا منه **ومن**
يتيه بحسن صوته فليعلم أن كثيرا من الطير أحسن
صوتا منه وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من
صوته فأي فخر أو أي سرور في ما تكون فيه
البهائم متقدمة له لكن من قوي تمييزه واتسع
علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك فإنه لا يتقدمه
فيه من الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس **قوله**
الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى فإن الجنة هي المأوى جامع لكل فضيلة

لأن نهي النفس عن الهوى عبارة عن منعها عن الطبع الغضبي
والطبع الشهواني لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى
فلم يبق إلا استعمال النفس النطق الموضوع فيها
الذي بانت به عن البهائم والحشرات والسباع **قوله**
رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي
استوصاه لا تغضب وأمره عليه السلام أن يحب المرء
لغيره ما يحب لنفسه جامعان لكل فضيلة لأن في نهيه
عن الغضب ردع النفس عن ذات القوة الغضبية بحسب
هواها وفي أمره عليه السلام بأن يحب المرء لغيره
ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية
وجمع لأزمة العقل الذي هو قائد النطق الموضوع
في النفس الناطقة **رابعه** أكثر الناس
إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم يتعلمون السفلى

والهم والتعب لا ينعمون في الدنيا ويكتسبون عظيم
الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه
بنفع أصلا من نيات خبيثة يضمرون عليها من تمني
الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له وتمني
أشد البلاء لمن يكرهونه وقد علموا يقينا أن تلك
النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئا مما يتمنونه أو يوجب
كونه وأنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها لتعجلوا الراحة
[illegible] وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم ولاقتنوا
بذلك عظيم الأجر في المعاد من غير أن يؤخر ذلك
شيئا مما يريدونه أو يمنع كونه فأي غبن أعظم من هذه
الحال التي نبهنا عليها وأي سعد أعظم من التي دعونا
إليها إذا حققت مدة الدنيا لم تجدها إلا الآن
الذي هو فصل الزمانين فقط ∴ وأما ما مضى ولم يأت

فمعدوم كما لم يكن فمن أضل ممن يبيع باقيا خالدا
بمدة هي أقل من كر الطرف إذا رام المرء خرج عن
الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن فلو رتب نفسه في
تفطنه على ذلك دائما لسعد السعادة التامة
من أساء إلى أهله وجيرانه وأسقطهم ومن
كافا من أسا إليه منهم فهو مثلهم ومن لم يكافيهم
بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم

فصل في العلم

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك
وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سببا إلى وجوب
طلبه وكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ولو لم
يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط
نظراءه من الجهال لكان ذلك سببا إلى وجوب الفرار عنه

فكيف بسائر ما يليه في الدنيا والآخرة **لو لم** يكن
من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل
عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد
غير الهم وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك
أعظم داع إليه فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره
ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم وفي
مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما
ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغاني وركض
الدواب في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود
بالمضرة في الدنيا والآخرة وأما فائدة فلا فائدة
لو فكر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم
من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بمغيب الحقائق عنه
ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية

عن غيره لزاد حمد الله عز وجل وغبطة بما لديه
من العلم ورغبة في المزيد منه **من شغل**
نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه
كان كزارع الذرة في الأرض التي لا يجود فيها البر
وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون
نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم
كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى
أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام
الصفراء **الباخل** بالعلم ألأم من الباخل بالمال لأن
الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده والباخل بالعلم
بخل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل **من**
مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا
يشغلها بسواه فيكون كغارس النارجيل بالأندلس

وكغارس الزيتون بالنشر وكل ذلك لا يجب **أجل**
العلوم ما قربك من خالقك تعالى وما أعانك على
الوصول إلى رضاه **انظر** في المال والحال والصحة
إلى من دونك. وانظر في الدين والعلم والفضائل
إلى من فوقك **العلوم** الغامضة كالأدوية القوية
تصلح الأجساد القوية وتهلك الأجساد الضعيفة
وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة
وتصفيه من كل آفة وتهلك ذا العقل الضعيف
من الغوص على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل
لكان أحكم من الحسن البصري وأفلاطون الأثيني
وبزرجمهر الفارسي **وقف** العقل عند أنه لا ينفع
إن لم يؤيد بتوفيق في الدين أو بسعد في الدنيا **لا**
تضر بنفسك في أن تجرب بها الآراء الفاسدة لترى

المشير بها فسادها فتهلك فإن ملامة ذي الرأي
الفاسد لك على مخالفته وأنت ناج من المكاره خير
لك من أن يعذرك وتندما كلاكما وأنت قد حصلت
في المكاره **إياك** وأن تسر غيرك بما تسوء به نفسك
فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة **وقف** العلم
عند الجهل بصفات الباري عز وجل **لا آفة** أضر على
العلوم وأهلها من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها
فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون
ويقدرون أنهم يصلحون **من أراد** خير الآخرة وحكمة
الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق
كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره
ما أمكنه أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين

[illegible]

غاظني أهل الجهل مرتين من عمري إحداهما بكلامهم
فيما لا يحسنونه أيام جهلي والثانية بسكوتهم عن
الكلام بحضرتي أيام علمي **من فضل** العلم والزهد
في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما
ومستحقيهما ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال
والصوت أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفي من
لا يستحقهما **من طلب** الفضائل لم يساير إلا أهلها
ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل
المواساة والبر والصدق وكرم العشرة والصبر
والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة
ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال
الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ولم يرافق في تلك الطريق
إلا كل عدو المعتقد خبيث الطبيعة **منفعة** العلم

في استعمال الفضائل عظيمة وهو أنه يعلم حسن الفضائل
فيأتيها ولو في الندرة ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو
في الندرة ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله والثناء
الرديء فينفر منه فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون
للعلم حصة في كل فضيلة وللجهل حصة في كل رذيلة
ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جدا
فاضل التركيب وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم
السلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه
من الناس **وقد** رأيت من غمار العامة من يجري من
الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم
عالم رائض لنفسه ولكنه قليل جدا ورأيت ممن طالع
العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا
الحكماء وهو لا يتقدمه في خبث السيرة وفساد العلانية

والشرهة بشرار الخلق وهذا كثير جدا فعلمت أنما مواهب وحرمان من الله تعالى ::

فصل في الأخلاق والشيم

احرص على أن توصف بسلامة الجانب وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك وربما قتلك ووطن نفسك على ما تكره تقل همك إذا أتاك ولم تستضر بتوقعه أولا وتعظم سرورك وتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته :: **إذا** تكاثرت الهموم سقطت كلها

الغادر يفي للمجدود والوفي يغدر بالمحدود والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان **لا تفكر** في من يؤذيك فإنك إن كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك وإن كنت مدبرا فكل أحد يؤذيك **طوبى** لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها **الصبر** على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام **فصبر** عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه **وصبر** عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك **وصبر** عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة :: والثاني فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة وهو الذي يوصف به الفضلاء :: والثالث ينقسم قسمين أما إن كان الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الوهلة ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه فالصبر عنه فضل وفرض وهو حلم على الحقيقة وأما من كان لا يدري مقدار نفسه ويظن أن لها حقا فيستطيل به ولا يندم على

ما أسلف منه فالضر عنده ل للظاهر وإفساد للمضمور
عليه لأنه يريد استبناءه والمقارمة لديه والصواب
إعلامه بأنه كان ممكنا أن ينتقص منه وأنه إنما لحـ
ـالا انتفاعه إلا له حفظ وصيانة له على مراجعته
ولإرادة علي عم اليد. وأما جماع السفلة فليس جزاؤه
إلا النكال وخزيه **ممن** خالط الناس لم يعرفهما يولم
نفعه وإنما يترم عليه من معاده وعنفا ينصح
كيف وده لا ينكسر همته فالظن يغرمن خالط الحسنة
وقد أحكم والعز والراحة والسرور والسلامة في
الانفراد عنهم ولكن أخطأهم كالنار نرفقا بها ولا
نخالطهما **لو لم** يكن في مجالسة الناس إلا اعتباران لكفتا
أحدهما الاستئناس عن الأنس بالأشرار المملة الغائلة
التي لولا المجالسة لم ينتج بها الناتج. والثاني موافقه

النعمة المتلكة في الأمر فلا سبيل إلى السلامة من
ما تين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة **لا تعجز**
شيئا من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل
فإن من قليل الأعمال تجمع كثيرها وربما أعجز أمرها
عند الأول فبطل الكل **لا تعجز** مما ترجو به تفصيل
ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وإن قل فإنه يحط
عند كثير لو اجتمع لقربك بعد في النار. **الوجع**
والفقر والنكبة والخوف لا يبصر أذاها إلا من
كان فيها ولا يعلمه من كان خارجا عنها. وفساد
الرأي والإثم والعار لا يعلم فيهما إلا من كان خارجا
عنهما وليس يراها من كان من أهلها فيهما. **الأمن والصحة**
والغنى لا يعرف حقها إلا من كان خارجا عنها وليس
يعرفه من كان فيها. وجودة الرأي والفضل والعمل

الأجر لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها ولا
يعرفه من لم يكن من أهلها **أول** من يعرض عن الغادر
من غدر له الغادر **وأول** من يمقت شاهد الزور من
شهد له به **وأول** من يهون الزانية في عينه الزاني
يزني بها **ما رأينا** شيئا فسد فعاد إلى صحته إلا العقل
لأني وكيف بمن ماء يتوالى عليه فساده كل ليلة وإن
عقلا زين لأغبيائه بعد إفساده كل ليلة لعقل يسعى
أن يتهم **الطرف** يترجم والرؤيا تكرم وكثرة المال
ترغب وقلته تنفع **فن** يحسن العاقل يزينه ولا يجوز
أن يشعر الأحمق بتزيينه **لا شيء** أضر على السلطان
من كثرة التفرغ على حواشيه والخدام يشغلهم بما لا يظلمهم
فيه فإن لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه وأما من
أغرى به من الرفاق نفسه **كثرة** وقوع العيب

على الشيء يسهل أمره ويهونه **النشوء** يزول بدوام
تركها والإكثار وقلة الإنصاف شيئان يجعلان
الجهال الذين مكنتهم الدنيا أمام جهلهم **لا** يغتر
العاقل بضراعة حاسديه له أيام دولته وكل أجل
صريعه يومين **احذروا** أن تستشيروا في أموركم من
يرى منها النقيصة مثل ما يرى من النفيسة ولا تستشيروا
فيها من جهته من غير جهته منه **لا تجب** عن كلام
نقل إليك عن ثالث حتى توقن أنه قاله فإن من نقل
إليك كذبا رجع من عندك بحق **يوثق** بالمتدين
وإن كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وإن أظهر
أنه على دينك **من** استخف بحرمات الله تعالى فلا
تأمنه على شيء مما تشفق عليه **وحرفة**
المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم

مرارا شتى حال اختباري إياه، ولم أجد فرقا على طول
التجربة سواه، فأعيتني معرفة العلة في ذلك حتى عرفت
أنها طبيعة في البشر من نسج الخلق لا انفكاك
على من أكثر الإساءة إذا أحسن في التزين من انسلاخ
من عروقه إذ حرق له أعمرا كثيرة، أشبه ما
رأيت بالرؤيا خيال الظل ونحو ما تراه محكية على
مظلة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبرز
أخرى، هكذا تغيب في الموت، وذلك أني صحبت أقواما
صحبة الروح للجسد من صدق المودة، فلما ماتوا رأيت
بعضهم في النوم ولم أر بعضهم، وقد كنت عاهدت
بعضهم في الحياة على التزاور في المنام بعد الموت إن
أمكن ذلك، فلم أره في النوم بعد أن تقدم إلى دار
الآخرة، فلا أدري أنسي أم شغل عقله النفس

ونسيانهما ما كانت فيه في دار الابتلاء، فمن حلولهما
في الجسد كغفلة من وقع في كبير غم عن كل ما عمل
وعرف قبل ذلك، ثم أمكنت الذكرى أيضا في دار الأرواح
لمن تغيب زائرا من النهار ومؤاخي، رأيت النائم إذ همت
نفسه بالتخلي من جسده، وقوي حسها حتى تشاهد
الغيوب، فربما نسيت ما كانت فيه قبل نومها نسيانا
تاما البتة على قرب عهدها به، وحدثت لها أحوال
أخر، وهي في كل ذلك ذاكرة حساسة متلذذة ألمة،
ولذة النوم محسوسة في حاله، لأن النائم يلتذ ويحلم
ويخاف ويحزن في حال نومه، إنما ذاك النفس
بالنفس، وأما الجسد مطروح به مشتغل، ومن دليل ذلك
اشتغال المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقته نفسه
وأسفه لذهاب النفس، وإن كان الجسد جامدا بين يديه

لما أ ولا إبليس أضرّ ولا أقبح ولا أخسّ من كلمتين
ألفاهما على النية ثم غاية إخراجهما اعتذار من أمساه
بأن فلانا أمساه قبله. والثانية استعمال الإنسان أن
يسمي اليوم لأنه من أمساء أمس أو أن يسمي في وجه
ما لأنه قد أمساه في غيره فعن ذا صارت هاتان الكلمتان
عذرا مستعملين للشر ومدخلتين له في جرم ما يعرف
ويجمل ولا ينكر. استعمال سوء الظن جنة تعين
على توقيته حقه في التحفظ والتأهب. واستعمال
حسن الظن جنة لا كلفة به على التحفظ فتريح راحة
النفس. ومحض الجود وغايته أن تبذل الفضل كله
في وجوه البر وأفضله الذي في إيثار المحتاج وذي
الرحم الفقير وذي النعمة الزائلة والأخص ما فيه
ومنع الفضل من جميع الوجوه داخل في البخل وعلى قدر

التقصير والتوسع في ذلك يكون المدح والذم وما
وقع في غير هذه الوجوه فهو تبذير وهو مذموم
وما تركت من قوتك لمن هو أشد حاجة منك فهو
فضل وإيثار وهو خير من الجود وما منع من هذا
فمنعه لا جناح ولا لائمة ومنعه انتصاف وبذل الواجبات
فرض وبذل ما فضل عن القوت جود والإيثار على
النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل ومنع
الواجبات حرام ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح
والمنع من الإيثار ببعض القوت عذر ومنع النفس
والأهل القوت أو بعضه شح ورذالة ومعصية
والمطال بما طلبت فيه أو أخرته بعد حقه ظلم
منكر والزهد خير في الدنيا الحقير لأنه إنما ترك
ما عند الله على الحقيقة لا مالك وإعطاء الناس حقوقهم

مما عندك ليس جوداً ولكنه جزء. وحدّ الشجاعة
بذل النفس للموت عن الدين وعن الحريم وعن الجار المضطهد
وعن المستجير المظلوم وعن الهضيمة ظلماً في المال
والعرض وفي سائر سبل الحق وسواء قلّ من يعارض
أو كثر والتقصير عما ذكرنا جبن وخور
وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق وأحمق من
ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق الواجبات
قبله أو قبل غيره وأحمق من هؤلاء قوم
شاهدناهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم فتارة
يقاتلون زيداً عن عمرو وتارة يقاتلون عمراً عن زيد
ولعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك
بلا معنى فينقلبون إلى النار أو يفرون إلى العار وقد
أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم د

في قوله يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل

وحد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن
الأجسام التي لا تحل لك فما عدا هذا فهو عهر وما
نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز
وحد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه
وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه وحد الكرم أن تعطي
من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً
وهو فضل أيضاً وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم
وفضل جوداً فالفضل أعم والجود أخص إذ الحلم
فضل وليس جوداً والفضل فرض زدت عليه نافلة
إهمال ساعة يفسد رياضة سنة خطأ الواحد
خير في تدبير الأمور من صواب الجماعة التي لا يجمعها
واحد لأن خطأ الواحد في ذلك يستدرك وصواب
الجماعة يضري على استدامة الإهمال وفي ذلك الهلاك

قوّاد النفس لا بعض كانت فيّ عيوب فلم أزل
بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله
عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في
الأخلاق وفي آداب النفس أعاني مداواتها حتى أعان
الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه وتمام
العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو
الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله
فمنها كلف في الرضى وإفراط في الغضب فلم أزل أداوي
ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام
والفعل والتخبط وامتنعت مما لا يحل من الانتصار وتحملت
من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مضض مؤلم كان ربما
أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى وكأني سامحت نفسي
في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم **ومنها** دعابة

غالبة فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب
الممازح وسامحت نفسي فيها إذ رأيت تركها من الانغلاق
ومضاهيا للكبر **ومنها** عجب شديد فناظر عقلي
نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له
والحمد لله أثر بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة
واستعمال التواضع **ومنها** حركات كانت تولدها
غرارة الصبا وضعف الإغضاء فقصرت نفسي على تركها
فذهبت **ومنها** محبة في بعد الصيت والغلبة فالذي
وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما
لا يحل في الديانة والله المستعان على الباقي مع أن ظهور
النفس الغضبية إذا كانت منقادة للناطقة فضل
وخلق محمود **ومنها** إفراط في الأنفة بغضت إلي إنكاح
الحرم جملة بكل وجه وصعبت ذلك في طبعي وكأني

توقفت عن معالجته من الإفراط الذي أعرف فيه
لعوارض اعترضت علي والله المستعان ومنها عيبان
قد سترهما الله تعالى وأعان على نفعا ومنهما وأعان بلطفه
عليهما عزمت أحدهما الغيبة ولله الحمد وكأن السعادة
كانت موكلة بي وإنما الآخر منه كالنخ فصرت كلمته
وكاولني الثاني منهما فكان إذا ثارت منه مرودة
نبضت عروقه فيكاد يتفجر ثم ينشر الله تعالى فرعه
بضروب من لطفه تعالى حتى أخلو ومنها حفظ مفرط
فرزقت بعون الله تعالى على كتبه وسنن وعلمته
على إتمام جميع نتائجه وأما قطعة الغيبة فلم أقرر
عليه وأعجزني بعده أن أصدق من عاداني عداوة صحيحة
أبدا وأما بين اثنين منهم فوم عيبا على الإطلاق
ولنشر كبر الله إنما الذي حاجة إلى ما لا يحل في الربانة

أو إلى ما يفتح في المعاملة والاعتقاد وأنهم قضلة
وأما الذي تعيبني به جمال أعداي من كثير لا أبالي
بهما أعتقد حقا عن غاية من جالعنه ولو أنهم
جميع من على ظهر الأرض وأني لا أبالي بموافقة
أهل بلادي في كثير من سنن الذي فرزقتموه لغير
معنى فمن الخطة من أكبر نعماء التي لا مثل لها
ولعمري لو لم تكن فيَّ وأعوذ بالله لكانت من
أعظم متمناتي وطلباتي عند خالقي عز وجل وأنا
أوصي بالذكر كل من تبلغه كلامي ولم ينفعه اتباعه
الناس في الباطل والفضول إنما أشغارته تعالى وعبر
عقله أو ألم نفسه وحسرته وتكلف مؤونة لا فائدة
فيها وقد غابني أنظار بعض من غاب عن معرفة الحقائق
أنني لا آلم لنيل من نال مني وأني أتعجب ممن نعتني

عتبة

عرّي

إلى إخواني فلما أمتعض لهم إذا نيل منهم بحضرتي وأنا
أقول إن من وصفني بالبلادة فقد أجمل الكلام ولم
يعنف، والكلام إنما أجمل إن درج فيه تحسين
القبيح وتقبيح الحسن ألا ترى لو أن قائلا قال إن فلانا
بلها أحسبه لعجمته البلد ولا تستقبحه كل سامع له
حتى إذا قيل مفارقي أحسبه في الإسلام ظهر فحش هذا
الإجمال وقبحه. وأما أنا فإني إن قلت لا ألم للنيل
من نال مني لم أصدق فالألم في ذلك مطبوع مجبول
في البشر كلهم لكني قد قصرت نفسي على أن لا أظهر
لذلك غضبا ولا سخطا ولا تبجحا فإن تيسر لي الإمساك
عن المعارضة جملة فإني أنا معتب لذلك فهو الذي أعتمد
عليه بحول الله تعالى وقوته وإن ما دربني الأمر إلى المعارض
إلا بكلام مؤلم غير ما حسن أتحرى فيه الصدق ولا

أخرجه مخرج الغضب ولا التحامل وإنما أجعله فإني كاره
لمثل إلا لضرورة داعية إليه مما أرجو به قمع المستخفين
في النيل مني أو قمع الناقل إلي إذ أكثر الناس يعنون
لإسماع المكروه من يسمعونه إياه على ألسنة غيرهم
ولا شيء أقمع لهم من هذا الوجه فإنهم يكفون به
عن نقلهم المكاره على ألسنة الناس إلى الناس ومثل هذا
شيء لا يعين إلا إخساء الضائر وإذ قال النمام فقط
ثم تفكرت فإن النائل مني لا يخلو من أحد وجهين
لا ثالث لهما إما أن يكون كاذبا وإما أن يكون
صادقا فإن كان كاذبا فلقد عجل الله لي الانتصار
منه على لسان نفسه بأن حصل في جملة الكذب وبأن أهل
نبه على فضلي بأن نسب إلي ما أنا منه بري العرض
وما يعلم أكثر السامعين له كذبه إما في وقته ذلك

وإمّا مُعْرٍ نفسه عمّا قال وإن كان صادقًا فإنه لا يخلو
من أحد ثلاثة أوجه. إمّا أن يكون شاركته في أمر
استرحتَ إليه استراحة المرء إلى من يعرف فيه ثقة
وأمانة فهو بمنزلة أسقط الناس حالة وكفى به سقوطا
وضعة وإمّا أن يكون عابني بما يظن أنه عيب
وليس عيبا فقد كفاني جهله شأنه وهو المعيب لا
من عابه. وإمّا أن يكون عابني بعيب هو فيّ على
الحقيقة وعلم فيّ نقصًا أطلق به لسانه فإن كان
ذا دين فنفسي أحقّ بأن ألوم منه وأنا حقيق أحرز
بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق وإمّا
أمر إخواني فإني لست أمسك عن الانتصاف لهم
لكني أنتصف انتصافًا رفيقًا لا أزيد فيه على أن أُفهم
القائل منهم بحضرتي وأخجله بتبرّمي وتغيّري وتجهّل
وتنصّل ونعم الأدب بأن أنتقد به بحضرتهم من قال من
الناس وأن ينظر المرء في أمر نفسه والتشبّث بإصلاحها
أولى به من تتبّع عثرات الناس وبأن أذكر فضل صديقي
فأبكّته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر
الفضيلة وأن أقول له إنه لا يرضى بذا الأديب فهو
أولى بالكرم منك فلا ترض لنفسك بهذا أو نحو هذا
من القول وأمّا أن أُماتن القائل فأُحميه وأُهيّج طباعه
وأستثير غضبه فتنبعث منه في صديقي أضعاف
ما أكره وأنا الجاني حينئذ على صديقي والمعرّض
له لتصحيح السبّ وتكراره فيه واستماع من لم يسمعه
والإغراء به وربّما كنت أيضًا في ذلك جانيًا على
نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي من إسماع
الجفاء والمكروه وأنا لا أريد من صديقي أن يذبّ عني

فأكثر من الوجه الذي جرت فإن تعين في الرأي أن
يساق النائل مني حتى يولي بي الذل أن يضاعف النيل
وأن يعترض أيضا إليه يفجئ المواجهة وربما إلى أن يعين
وأعوانه على فور سعيه النائل وعن له من أثره وربما
كانت منازعة بالأيدي فأنا مستنفق لفعله حين
ذا البذل عليه متفضل منه غير شاكر له لكن الرحمة
علي في الذل أشد اللوم وبالله تعالى التوفيق. وفي من
أيضا نقص من تعسف الأمور دون تحقيق لي أمع
مالي وهي جملة فأنا أبي لا أضيع منه إلا ما
كان في حفظه نقص من دين أو إخلاق عرض أو إتعاب
نفس فإني أرى الذي أضيعه من هذه الثلاثة فإن قل
أجل في العوض مما أمر من مالي ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس تضيع
ووجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه

على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره فما استعنت على
قمع هذه الطوالع الفاسدة وعلى كل خير في الدين
والدنيا إلا بما في قوتي من ذلك ولا حول ولا قوة إلا
بالله تعالى **وأما** من طبع على الجور واستسهاله وعلى
الظلم واستخفافه فلييأس من أن يصلح نفسه أو يقوم
طباعه أبدا وليعلم أنه لا يفلح في دين ولا في خلق
محمود **وأما** الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم
أعرفها بطبعي قط وكأني لا حمد لي في تركها لمنافرة
جبلتي إياها والحمد لله رب العالمين **من عيب** حب
الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر
بها فكاد يكون شركا لأنه يعمل لغير الله عز وجل
وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل
الخير حبا للخير لكن ليذكر به. **أبلغ** في ذمه

من مدحك بما ليس فيك لأنه نبه على نقصك وأبلغ
في مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك
ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستهدافه إلى
الإنكار واللائمة لو علم الناقص نقصه لكان كاملا
لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه
ودقت أكثر ما يكون ما لم يحتسب والحزم هو التأهب
لما يظن فسبحان مرتب ذلك ليري الإنسان عجزه
وافتقاره إلى خالقه تعالى

فصل في الإخوان والصداقة والنصيحة

استبقاؤك من عاتبته وزهدك فيه من استهانتك به
العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فإما تصفو
وإما تطير من طوى من إخوانك سره الذي يعنيك
دونك أخون لك ممن أفشى سرك لأن من أفشى

سرك فإنما خانك فقط ومن طوى سره دونك
منهم فقد خانك واستخونك لا ترغب في من زهد
فيك فتحصل على الخيبة والخزي لا تزهد في من رغب
فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك معارضة
الإحسان وهذا قبيح من امتحن بأن يخالط الناس
فلا يلق بوهمه كله إلى من صحب ولا يبن منه إلا على
أنه عدو مناصب ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب
من غدر إخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو
المكاشف فإن سلم من ذلك فلله الحمد وإن كانت الأخرى
ألفي متأهبا ولم يمت غما وأنا أعلمك أن بعض من
خالص المودة وأصفاني إياها غاية الصفاء في حال
الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى
تغير علي أقبح تغير بعد اثني عشر عاما متصلة في

غاية الصفاء لسبب الحب حتى ما فرقه قط أنه يوجد
مثله في أحد من الناس وما صلح لي تفرقهما ولعل ممن
عم الله سنين كثيرة هما شيئا ولكن لا نستعمل مع
عن أسوء المعاملة فليحذر ذوي الشرارة من الناس وأقل
الحب منهم ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك شاقة
المتقلب يحتاج سالكها إلى أن يكون أقدر من القطا
وأحذر من العقعق حتى يغادر الناس راحلا إلى ربه
تعالى ومنها الطريق من طرق الفوز في الدين والدنيا
يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة
والعقول الصحيحة البراءة من المكر والخديعة ويحوز
فضائل الأبرار ويحيا بالفضلاء ويحصل مع ذلك
على سلامة الزمان وتخلص الخبثاء ذوي المكر
والدهاء ومعنى أن تكتم سر كل من وثق بك وأن لا تفشي

إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك
طيه بوجه من الوجوه ولو أنه أخص الناس بك وأن تعني
بجميع من ائتمنك ولا تأمن أحدا على شيء من أمرك
تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها فارتج حبيبك
واخشهم وعلى الله تعالى الكفاية وابذل فضل مالك
وجاهك لكل من سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج
إليك وأمكنك نفعه وإن لم يعتمدك بالرغبة ولا تشعر
نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز
وجل ولا تبن إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر
بك وساع عليك فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون
لشدة الحسد من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من
أحوالهم وعامل كل أحد في الأنس أجمل معاملة
واضمم السلو عنه إن فات ببعض الآفات التي تأتي مع

مع مرور الأيام والليالي فتعيش معهما لما منشؤها
لا تنصح على شرط القبول ولا تشفع على شرط
الإجابة ولا تهب على شرط الإثابة لكن على سبيل
استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة
وبذل المعروف **حد الصداقة** الذي يدور على طرفيه
محدوده، هو أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر
ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقا ومن
حمل هذه الصفة فهو صديق وقد يكون المرء صديقا
لمن ليس صديقه وأما الذي يدخل في باب الإضافة
فهو المصادق فهذا يقتضي فعلا من فاعلين إذ قد
يحب الإنسان من يبغضه وأكثر ذلك في الآباء مع
الأبناء وفي الإخوة مع إخوتهم وبين الأزواج وفيمن
صار حبه عشقا وليس كل صديق ناصحا لكن كل

ناصح صديق فيما نصح فيه **وحد النصيحة** هو أن يسوء
المرء ما ضر الآخر ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه، وأن يسره
ما نفعه سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد
على شروط الصداقة وأقصى غايات الصداقة التي لا
مزيد فيها من شاركك بنفسه وماله لغير علة توجب
ذلك وآثرك على من سواك. ولولا أني شاهدت مطرفا
ومباركا صاحبي بلنسية لظننت أن هذا الخلق معدوم
في زماننا ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع
أسباب الصداقة مع تباين الأحوال الموجبة للفرقة
غيرهما ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من
الاستكثار من الإخوان والأصدقاء فإن ذلك فضيلة
تامة متركبة لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم والجود
والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة

وحسن الرعاية وتعليم العلم وبكل حالة محمودة ثم
ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أبناء الحرمة وأولاد
الخصوص الإخوان وحبيب الأصدقاء والذين يظن أنهم
أولياء ولسنوا كذلك ومع ذلك إلا أنهم منهم عشق
أبناء الدنيا ولا نعني أيضا المتعاضدين لبعض
الأطماع ولا المتساعدين على الخير والمجتمعين
على المعاصي والقبائح والمتألفين على النيل من أعراض
الناس والأخذ في الفضول وما لا فائدة فيه فليس
هؤلاء أصدقاء ومع ذلك إلا أن بعضهم ينال من بعض
ويعرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم
وإنما نعني إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله عز
وجل إنما للناس على بعض الفضائل الغريزية وإنما
لبعض المحبة الغريزية فقط ولكن إذا حصلت عوق

حصلت

الاستكثار منهم وصعوبة الخلاص إذا آذيتهم والعزل
في مشاركتهم وما يلزمك من الحقوق لهم عند نكبة
تعرض لهم فإن عزت بهم أو أسلمتهم لؤمت وإن حملت
وإن وجبت أضرت بنفسك وربما هلكت ومثل الذي
لا ترضى الناس بهواه إنما تثبت في الصداقة وإنما
تعكرت في الشر بما لهم وفيهم من ضغن أو قرار أو عذر
من تعزز منهم كاد الشرور لا يعني بالحزن المحض من
أخلفهم ولنشرح الرذائل أشبه بالفضائل من جهة
المزح ومع ذلك إلا أنه في الوجه يخفف من ضجر
وقد جاء في الأثر في المزاح ما جاء إلا أنه من يشبع
به في الإفطار عن الشيء والتزيد من الخير وفي أن يرغب
في ذلك الخلق الممزوج ولنرجع عنه إلى أن بعض
الناس بين الدنيا لغير رجلا من أهل الآخرة للناس

بغرض

ولمن فعل بعض الأعمال الحسنة فقابله بالثناء عليه
وبأنه فمن سمع شخصا منتقصا ووصفه بالجميل والرفق
منتشيا فكان ذلك سببا إلى انقطاع ذلك الفاسق عن
كثير من شره **بعض أنواع النميمة** يشكل تمييزه
من النصيحة لأن من سمع إنسانا يروم أخذ مال لـه
أو يكيد كائدا له فكتم ذلك عن المقول فيه والكيد
كان الكاتم لذلك ظالما مذموما ثم إن أعلمه بذلك
على وجهه كان ربما قد ولد على النمام والكاذب ما لم
يبلغه استخفافه بغيره من الأمر فيكون ظالما له وليس
من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه والتعلم
من هذا الباب مقصب الأعلى دون العقول والأن العاقل
في مثل هذا أن يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون
أن يبلغه ما قال لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك ۝

وأما في الكبر فالواجب أن تحفظه من الوجه الذي
يكاد منه بالطرف ما تقدر في الكتمان على الكائن وأن تبلغ
ما تقدر في تحفظ الكبير ولأنه على هذا انتشار **وأما**
النميمة فهي التبليغ لما تسمع مما لا ضرر فيه على المبلغ
إليه وبالله التوفيق **النصيحة** مراتب فالأولى فرض
وديانة والثانية تنبيه وتذكير وأما الثالثة فتوبيخ
وتقريع وليس وراء ذلك إلا الركل واللطام وربما
أشد من ذلك من البغي والأذى اللهم إلا في معاني
الديانة فواجب على المرء ترداد النصح فيها رضي
المنصوح أو سخط تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ ثم
إذا نصحت فانصح سرا لا جهرا وتعريضا لا تصريحا
إلا لمن لا يفهم فلا بد من التصريح له ولا تنصح على شرط
القبول منك فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح

وكمالك طاعته وملك لا مؤد حق أمانته وأخوته وليس
من أحكام العقل ولا حكم الصداقة لكن حكم الأمير مع
رعيته والسيد مع عبده **لا تكلف** صديقك إلا مثل
ما تبذل له من نفسك فإن طلبت أكثر فأنت ظالم
ولا تكسب إلا على شرط الفقد **ولا** تتول إلا على
شرط العزل وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة
مسامحة أهل الاستئثار والاستغنام والتغافل لهم
ليس مروءة ولا فضيلة بل هو مهانة وضعف وتضرية
لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به
وعون على ذلك الفعل السوء وإنما تكون المسامحة مروءة
لأهل الإنصاف المبادرين إلى الإنصاف والإيثار
مما ولاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك
لا سيما إن كانت حاجتهم أمس وضرورتهم أشد متى

أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردته فـ
ابتداء بقضائها فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد
أنت وإلا فأمسك فإن تعديت هذا كنت مسيئا لا
محسنا ومستحقا للوم منه ومن غيره لا للشكر ومقتضيا
للعداوة لا للصداقة **لا** تنقل إلى صديقك ما يؤلم
نفسه ولا ينتفع بمعرفته فهذا فعل الأرذال ولا تكتمه
ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر **لا** يسرك أن تمدح
بما ليس فيك بل ليعظم غمك بذلك لأنه نقصك ينبه
الناس عليه ويسمعهم إياه وسخرية منك وهزء بك
ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل **ولا** تأس إن ذممت
بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبه الناس عليه
ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح وسواء
مدحت به أو لم تمدح واحزن إذا كان فيك ما تستحق

به الذم وسواء ذممت به أو لم تذم من سمع قائلا
يقول في امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا
لا سيما إن كان القائل عيابة وقاعا في الناس قليل
الحياء أو مداعبا مغرما عن نفسه فما أكثر أمثاله
في الناس وهذا كثير موجود وبالجملة فلا يعرف
الإنسان إلا بالخبر وقول مثل القائل لا يدرى أحق هو
أم باطل إلا أنه في الديانة عظيم فإن سمع القول
مستفيضا وعلم أن أصل ذلك القول شائع وليس راجعا
إلى قول إنسان واحد أو اطلع على حقيقة إلا أنه لا
يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف هو عليه فليخبر
بذلك بينه وبينه في رفق وليقل له البسا كثيرا وحيص
منه لك وتتبع أمثاله واجتنب أمرا كذا وتحفظ من
وجه كذا فإن قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه أصاب

وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أمسك ولا يعاوده بكلمة
وبما دل على صداقته إياه فليتبرع ألا يصرفه في قولهما
يوجب قطيعته فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف
صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة فعرض
عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجلية فإن عجز
عن ذلك وإن رآه لا يفهم فليجتنب عشرته فإنه رجل لا
خير فيه ولا تقية. ودخول رجل مستتر في منزل المرء
دليل سوء لا يحتاج إلى غيره ودخول المرأة في منزل
رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضا وطلب دليل أكثر
من هذين سخف وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة
ومرافقها على كل حال ومسكنها لا ينفك عن الريبة ه
الناس في أخلاقهم على سبعة مراتب فطائفة
تفرح في الوجد وتنام في المغيب ومن صفة أمثل

الفقراء من العابدين وممن غلوا وافرطوا في النار عافانا الله منهم
وطائفة تقوم في الشطح واللعب ومن صفة أهل
السلامة والرفاهية من العابدين **وطائفة** تمرح
في الوجد والطرب ومن صفة أهل اللهو والطمع
وطائفة تقوم في الشطح وتمرح في اللعب ومن
صفة أهل الشبع والتواكل **وأما** أهل الفضل
فيمسكون عن المرح والقيام في السماع ويقنعون بالتغني
في اللعب أو يمسكون عن القيام **وأما** القائلون البرآء
من الفقراء والعامة فيمسكون في الشطح ويرمون في
اللعب **وأما** أهل السلامة فيمسكون عن المرح
وعن القيام في الشطح واللعب ومن كل من الصفات
قدمنا ما قررنا وبلغناه **إذا** نصحت بعض الخلان بكلام
لين ولا تنتسب من نصحته إلى غيره فتكون

تماما فإن خشيت فلا تمد في النصيحة من الإغراء وتعبس
وزجر قال الله تعالى فقولا له قولا لينا وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا تنفروا وإن نصحت بشيء من
القول منك فأنت كالم ولعلك تغلط في وجه نصحك
فتكون مطالبا بقول خطئك وتترك الصواب **لعل شيخه** في
ما يرى ولقد تعرفت بجهل أهل الجهل متفقة عقيمة
ومن أنه توقف طبعي واختبر مزاجهم وحسي وعقلي
وتمزح فقاطي وكان له البدء سببا إلى تواليف لي عظيمة
المنفعة ولولا اشتغاله ثم ساكن واقتراحهم كان من هنا
انبعثت لهذه التواليف ؞

فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها
المحبة كلها جنس واحد ورسمها أنها الرغبة في المحبوب

وكراهيته مفارقته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة
وإنما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض
فيها وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع
وتزايدها وضعفها أو انحسامها فتكون المحبة لله عز
وجل وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللإلف
وللقرابة وللصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمنعم
وللمأمول وللمعشوق فهذا كله جنس واحد اختلفت
أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال من
المحبوب فلذلك اختلفت وجوه المحبة وقد رأينا من
مات أسفا على ولده كما يموت العاشق أسفا على معشوقه
وبلغنا عن من شهق من خوف الله تعالى ومحبته ما
ونجد الملك يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار
على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه ه

فأدنى أطماع المحب ممن يحب الحظوة منه والرفعة
لديه والزلفة عنده إذا لم تطمع في أكثر وهو
غاية أطماع المحبين لله عز وجل ثم يزيد الطمع في
المجالسة ثم في المحادثة والموازرة وهذه أطماع المرء في
سلطانه وصديقه وذوي رحمه **وأقصى** أطماع
المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء إذا رجا ذلك ولذلك
نجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في
مجامعتها على هيئات شتى وفي أماكن مختلفة ليستكثر
من الاتصال ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسم
والتقبيل ومن يقع بعض هذا الطمع في الأب في ولده
فيتعدى إلى التقبيل والتعنيق وكل ما ذكرنا إنما هو
على قدر الطمع فإذا انحسم الطمع عن شيء ما بعض
الأسباب الموجبة له مالت النفس إلى ما تطمع فيه ه

وفيه المقر بالربوبية لله عز وجل شديد الحنين
إليهما عظيم النزوع نحوهما لا يقنع بزوجته دونهما
لأنه يطمع فيهما **وفيه** المنكر لهما لا تحن نفسه إلى
ذالك ولا يهمه أصلا لأنه لا يطمع فيه ونحو مقتصر
على الرضى والخلود في دار الكرامة فقط لأنه لا
تطمع نفسه في أكثر **وفيه** المستحل لنكاح القرائب
لا يقع منهن ما يقع المحرم لذالك ولا تقع محبته
حيث تقع محبة من لا يطمع في ذالك فمثل من يستحل
نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا تقع
من محبتهما حيث يقع المسلم بل يجري بهما يتعشقان
الابنة وابنة الأخ كتعشق المسلم من يطمع في
مخالطته بالجماع ولا تجد مسلما يبلغ ذالك فيهما
ولو أنهما أجمل من الشمس وكان من أعهر الناس

وأعز لهم فإن وجد ذالك في النوادر فلا يكون إلا من
فاسد الدين فمن زال عنه ذالك الرادع فانفتح له
الأمل وانفتح له باب الطمع ولا يؤمن من الميل أن تحركه
محبته لابنة عمه لها حتى تصير عشقا وحتى تتجاوز
محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه وإن كانتا أجمل
منها لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا
يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه **وفيه**
النصراني هو آمن من الإثم من نفسه في ابنة عمه إذ لأنه
لا يطمع منها في ذالك ولا يأمن هذا الذي من نفسه في أخته
من الرضاعة لأنه طامع فيها في شريعته فلاح بهذا
عيانا ما ذكرنا من أن المحبة كلها جنس واحد لكنها
تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها وإلا
فطبائع البشر كلهم واحدة إلا أن العادة والاعتقاد

الدنيء دنيًّا ظاهرًا ولسنا نقول إن الطمع له تأثير
في هذا الفن وحده لكنّا نقول إن الطمع سبب إلى
كل إثم وجميع الأموال والأحوال فإنّا نجد الإنسان
يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمّته وعمّه لأمّه وابن
أخيه لأمّه وجميع أقربائه وابن بنته فإنه لا يطمع له
في ماله أن يقع عنده الهمّ لفوته عن يده وإن جلّ خطره
وعظم مقداره فلا سبيل إلى أن يهمّه الاهتمام لشيء منه
بباله حتى إنه ما كان له عصبة على بعدٍ أو مولًى على بعدٍ
وحدث له الطمع في ماله حدث له من الهمّ والأسف
والغيظ والفكر بفوت اليسير منه عن يده أمرٌ عظيم
وهكذا في الأحوال فيصير الإنسان من أجل الطمع
المتأخر لا يهتمّ لانفراد غيره بأمور بلده ووزارته
ولا لتقريب غيره وإبعاده حتى إذا حدث له طمع

في هذه المرتبة حدث له من الهمّ والفكر والغيظ أمرٌ
ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه فالطمع
أصل لكل شرّ ولكل إثم وهو خلق سوء مذموم وهو
ملازمة النفس وهي صفة ما فيه متركّبة من الحرص
والجهود والعزل والقهر لأنه من همّه قلّة الفائدة في
استعمال صرفها فاستعملها وكانت فيه نجدة أو همّة له
عزّة لنفسه فتترقّى وكانت فيه طبيعة غير جميلة
إليه الفاقة وقلّة الطمع فإذا لازمة النفس مركّبة
من هذه الصفات فالطمع الزائد هو صنف مما متركّب من الصفات
المذمومة لأن الصفات الأربع ومنها الجبن والشحّ والجور
والجهل والرغبة طمع مطمئن فمن رأى مشتغلًا ولولا
الطمع ما أمن أحد لأحد. وأخبرني أبو محمد بن أبي القاسم
قال كنت عند عثمان بن عامر على باب داره ما أشبهه يا عثمان

لا تطمع

فصول من هذا الباب

من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببعد من يحب ولا فرق
إذا ادعى المحب في السلو فإجابته مضمونة ودعوته
مجابة **اقنع** بمن عندك يقنع بك من عندك **السعيد**
في المحبة هو من ابتلي بمن يقدر أن يلقي عليه ثقله ولا
يلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من
الناس صلاح المحب أن يتوافقا في المحبة وتجريده
أن يكونا خاليين من المثال فإنه خلو سوء منغص وتمامه
يوم الأيام عنهما من انقطاع بعضهما ببعض وأثر بلائه
إلا في الجنة وأما ضمانه ببعض ولبشر الا فيما يخفى من ان
الفراق والا فلو حصل المحب كله في الدنيا لم يؤمن الفجائع
ولقطع الدهر دون استيعاب اللذة **إذا** ان تبعث الغيرة
فأيقن بانقطاع المحبة **الغيرة** خلق فاضل متركب من

النجدة والعدل لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره
وأن يتعدى غيره إلى حرمته ومن كانت النجدة طبيعة له
حدثت فيه عزة ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام
أخبرني بعض من عنيت في الدهر عن نفسه أنه ما
عرف الغيرة قط حتى ابتلي بالمحبة فغار وكان هذا
الخير فاسد الطبع خبيث التركيب إلا أنه كان من أهل
الفهم والجود **درج** المحبة خمس أولها الاستحسان
وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة أو يستحسن
أخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق ثم الإعجاب به
وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه ثم الألفة
وهي الوحشة إليه متى غاب ثم الكلف وهو غلبة شغل
البال به وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق ثم
الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير

من ذا اليد وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت وليبشر ورآء ذا الأمر منزلة في ثنا من الجنة أملا.

فصل في أنواع صباحة الصور

وقد سئلت عن تفسير الكلام فيها **الحلاوة** رقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصور وإن لم تكن هناك صفات كاملة **القوام** جمال كل صفة على حدتها ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو **الروعة** بهاء الأعضاء الظاهرة مع جمال فيها وهي أيضا الفراهة والعتق **الحسن** هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه غيره ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه، وهو برد مكسو على الوجه وإشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه وإن لم تكن هناك صفات جميلة وكأنه شيء في نفس المرئي [illegible] تجده نفس الرائي وهو أجل مراتب الصباحة لأن كل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى إذا تأملت الصفات أفرادا لم تر طائلا ثم تختلف الأهواء بعد هذا فمن مفضل للروعة ومن مفضل للحلاوة وما وجدنا أحدا قط يفضل القوام المنفرد **الملاحة** اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا

فصل في ما يتعامل الناس به في الأخلاق

التلون المذموم هو التنقل من زي متكلف لا معنى له إلى زي آخر مثله في التكلف ومن أنه لا معنى له ومن حال لا معنى لها إلى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك لها وأما من استعمل من الزي ما أمكنه مما به إليه حاجة وترك التزيد مما لا يحتاج إليه فهذا عين من عيون العقل والحكمة

كثير وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
القدوة في كل خير والذي أثنى الله تعالى على خلقه
والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها وأبعده
عن كل نقص يعود المريض مع أصحابه راجلا في أقصى المدينة
بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ويلبس الشعر
إذا حضر وقد يلبس الوشي من الحبرات إذا حضر
ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه ويستغني بما حضر عما لا يجد
ومرة يمشي راجلا حافيا ومرة يلبس الخف ويركب البغلة
الرائعة الشهباء ومرة يركب الفرس عريا ومرة يركب
الناقة ومرة حمارا ويردف عليه بعض أصحابه ومرة
يأكل التمر دون خبز والخبز يابسا ومرة يأكل العناق
المشوية والفالوذج بالرطب والحلواء يأخذ القوت ويترك
الفضل ويترك ما لا يحتاج إليه ولا يتكلف فوق مقدار

الحاجة ولا يغضب لنفسه ولا يترك الغضب لربه عز
وجل **الثبات** الذي هو صحة العقد والثبات
الذي هو اللجاج مشتبهان اشتباها لا يفرق بينهما إلا
عارف بكيفية الأخلاق والفرق بينهما أن اللجاج هو ما
كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصرا لما نشب فيه وقد
لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده وهذا مذموم
وضده الإنصاف **وأما** الثبات الذي هو صحة العقد فإنما
يكون على الحق أو على ما اعتقده المرء حقا ما لم يلح له
باطله وهذا محمود وضده الاضطراب وإنما يلام بعض
هذين لأنه ضيع تدبر ما ثبت عليه وترك البحث عما
التزم أحق هو أم باطل **حد العقل** استعمال الطاعات
والفضائل وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل
وقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه

لا يعقل قال تعالى حكاية عنهم قالوا لو كنا نسمع أو
نعقل ما كنا في أصحاب السعير ثم قال تعالى مصدقا لهم
فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير **وضد الحمق**
استعمال المغالب والرذائل وأما التعدي وقذف الحجارة
والتخليط في القول فإنما هو جنون ومرار هائج **وأما**
الحمق فهو ضد العقل وهما ما بينا آنفا ولا واسطة
بين الحمق والعقل إلا السخف **وضد السخف** هو
العمل والقول بما لا يحتاج إليه في دين ولا دنيا ولا حميد
خلق مما ليس بمعصية ولا طاعة ولا عونا عليهما ولا
فضيلة ولا رذيلة موذية ولكنه من هذر القول وفضول
العمل فعلى قدر الاستكثار من هاتين الأمرين أو التقلل
منهما يستحق المرء اسم السخف وقد يسخف المرء في
قصة ويعقل في أخرى ويحمق في ثالثة **وضد**

الجنون تمييز الأشياء ووجود القوة على التصرف في
المعارف والصناعات وهذا الذي تسميه الأوائل النطق
ولا واسطة بينهما **وأما** إحكام أمر الدنيا والتودد
إلى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل
أو غيره أو عيب أو ما عداه والتحيل في إنماء المال وبعد
الصوت وتسبب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة
فليس عقلا ولقد كان الذين صح عنهم الله تعالى أنهم
لا يعقلون وأخبر تعالى بأنهم لا يعقلون ساسة
لدنياهم مثمرين لأموالهم مدارين لملوكهم حافظين لرياستهم
لكن هذا الخلق يسمى الدهاء وضده الغفلة والسلامة
وأما إذا كان السعي في ما ذكرنا نصا ونابا أو نحوه فهو
يسمى الحزم وضده المنافي له التضييع **وأما** الوقار
وهو وضع الكلام موضعه والتوسط في تدبير المعيشة

ومساوئ الناس بالمسالمة فهي من الأخلاق وتسمى الرزانة وهي
ضد الشغب **الوفاء** مركب من العدل والجود والنجدة
لأن الوفي رأى من الجور ألا يقارض من وثق به أو من أحسن
إليه فعدل في ذلك ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدم
الوفاء من الحظ فجاد في ذلك ورأى أن يتجلد لما يتوقع
من عاقبة الوفاء فتشجع في ذلك **أصول الفضائل**
كلها أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي العدل والفهم
والنجدة والجود **وأصول الرذائل** كلها أربعة
عنها تتركب كل رذيلة وهي أضداد التي ذكرنا وهي
الجور والجهل والجبن والشح **الأمانة** والعفة نوعان
من أنواع العدل والجود **النزاهة** في النفس فضيلة
تتركب من النجدة والجود وكذلك الصبر **الحلم**
نوع مفرد من أنواع النجدة **القناعة** فضيلة مركبة

من الجود والعدل **الحرص** متولد عن الطمع والطمع
متولد عن الحسد والحسد متولد عن الرغبة والرغبة متولدة
عن الجور والشح والجهل **ويتولد من الحرص** رذائل
عظيمة منها الذل والسرقة والغصب والزنى والقتل
والعشق والهم بالفقر والمسألة لما بأيدي الناس فتولد
فيما بين الحرص والطمع لأن الحرص هو اكتناز ما استحق
في النفس من الطمع **المداراة** فضيلة مركبة من الحلم
والصبر **الصدق** مركب من العدل والنجدة من جاء
إليك بباطل رجع من عندك بحق وهذا الذي من نقل
إليك كذبا عن إنسان حركك لسخطه فاحتشم فرجع عنك
بحق متحفظ من هذا ولا تجب إلا عن كلام صح عندك
عن قائله **لا شيء** أقبح من الكذب وما ظنك بعيب
يكون الكفر نوعا من أنواعه فكل كفر كذب ما الكذب

جنس والكذب نوع تحته والكذب متولد من الجور والجبن والجهل لأن الجبن يولد مهانة النفس والكذب مهين للنفس بعيد من عزتها المحمودة. **رأيت الناس** في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة أحدها من لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل وهذا هو الأغلب في الناس **والثاني** أن يتكلم ناصرا لما وقع بنفسه أنه حق ودافعا لما توهم أنه باطل غير متحقق لطلب الحقيقة لكن لجاجا فيما التزم وهذا كثير وهو دون الأول **والثالث** واضع الكلام في موضعه وهذا أعز من الكبريت الأحمر **لقد** طال همّ من غاظه الحق

إنسانان عظمت راحتهما أحدهما في غاية الحمد والآخر

في غاية الذم وهما مطرح الدنيا ومطرح الحياء **لو** لم يكن من التزهيد في الدنيا إلا أن كل إنسان في العالم فإنه كل ليلة إذا نام نسي كل ما يشفق عليه في يقظته وكل ما يشفق منه وكل ما يشتهيه إليه فيحصل في بلد الخيال لا يذكر ولدا ولا أهلا ولا جاها ولا خمولا ولا ولاية ولا عزلة ولا فقرا ولا غنى ولا مصيبة وكفى بهذا واعظا لمن عقل **من عجيب** تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شيء اشتدت الحاجة إليه كان ذلك أهون له وتأمل ذلك في الماء فما فوقه. وكل شيء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعز له وتأمل ذلك في الياقوت الأحمر فما دونه **الناس** في ما يعانونه كالماشي في الفلاة كلما قطع أرضا بدت له أرضون وكلما قضى المرء سببا حدثت له أسباب **صدق** من قال إن

الغافل معجب في الدنيا وصدق من قال إنه فيها منتش
فأما تعريته فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته
وبما يجادل به ويطلبه من إطفاء الحق وأما راحته فمن
كل ما يتنعم به مما بيد الناس من فضول الدنيا إياك
وموافقة الجليس ومساعدة أهل زمانك في ما يضرك
في أخراك أو في دنياك وإن قل ما بيدك لا تستعقب من ذلك
إلا الندامة بحيث لا ينفعك الندم ولن يحمدك من
ساعدته بل يشمت وأقل ما في ذلك وهو المضمون
أنه لا يبالي بسوء عاقبتك وفساد منقلبك وإياك
ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك في ما لا يضرك
في دنياك ولا في أخراك وإن قل ما بيدك تستعقب من ذلك
الأذية والمنافرة والعداوة وربما أدى ذلك إلى
المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا إن لم

يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ولم
تكن مندوحة عن منافرة أحدهما فمنافرة الخلق وإغضاب
الناس ومنافرتهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق اقتداء
بالنبي صلى الله عليه وسلم في وعظ أهل الجهل والمعاصي
والتنبيه على الواجب فمن وعظ بالجفاء والإغلاظ فقد
أخطأ وتعدى طريقته صلى الله عليه وسلم وكان في
أكثر الأمر مغريا للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجا ودرءا
ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه مسيئا
محسنا ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكأنه مستشير
برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ
فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة فإن لم يتقبل فلينتقل
إلى الموعظة بالتحشيم وفي الخلاء فإن لم يقبل ففي حضرة
من يستحي منه الموعوظ فهذا أدب الله تعالى في أمره

بالقول والفعل وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه
بالموعظة لكن يقول ما بال أقوام يفعلون كذا، وقد أثنى
عليه الصلاة والسلام على الرفق وأمر بالتيسير ونهى عن التنفير
وكان يتخولهم بالموعظة خوف الملل، وقال تعالى ولو
كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. **وأما**
الغلظة والفحش فإنما يجب في حق من جحد حدود الله تعالى
فلا تأخذه في الله لومة لائم على إقامة الحق خاصة. **ومما**
ينفع في الوعظ أيضا أن يحضر المسيء على من فعل
خلاف فعله فيقتدي داعيه إلى عمل الخير. ومما أعلم
يجب للمرء فضلا للأمراء وغيرهم وممن يقتدى به
من تضييع الشيء ومما يجب أن يعرف أن الفضائل والرذائل
لمن سمعها عن النبي المأثور عن غيره وترغبه في
العمل المنقول عمن تقدمه وتعظه بما سلف

فتأملت كل ما دون السماء وكانت فيه وكيف قد وجدت
كل شيء فيه من خير وغير خير من صنعه أن فرق
أن يخلع غيره من الأنواع كيفياته ويلبسه صفاته
فترى الغاطس يود لو كان الناس فضلاء وترى الناقص يود
لو كان الناس نقصا وترى كل من له كرسي يحكم عليه
يقول وأنا أفعل كذا وكل ذي مذهب يود لو كان
الناس موافقين له وترى الذي في الغذاء إذا فرق
بعضها على بعض أحاله إلى نوعيته وترى الدهن
تركيب الشجر وفي تغير النبات والشجر بالماء ورطوبة
الأرض وإحالتها ذلك إلى نوعيتهما فسبحان مخترع
ذلك ومدبره لا إله إلا هو. **ومن عجيب** قدرة الله
تعالى كثرة الخلق ثم لا ترى أحدا يشبه آخر شبها
لا يكون بينهما فرق وقد سألت من طاف غيره وبلغ

أمرا

التي ذكرنا فما من رأى الصور فيما خلا مشبهة لصورة
شبههما واحدا فقال إنه لا بد لكل صورة من قومها ومكرا
كل ما في العالم يعرف به الله من تدبر الآلاف
وجميع الأجسام المركبات وكان ذكر ربهم علينا
فإنه يميز ما بينهما ويعرف بعضها من بعض بعروق
يميز
فيما تعرفها النفس ولا يقدر أحد يعبر عنها بلسانه
فسبحان العزيز الحكيم الذي لا تتناهى مقدوراته ٥

من عجائب الدنيا قوم غلبت عليهم آمال فاسدة لا
يحظون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا ثم الإثم
آجلا كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس
وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره وإن كانت
له فيها منفعة فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له
ما أمله قبل وقته ولا يأتيه من ذلك إلا ما سبق في علم الله
تعالى بكونه فلو تمنى الخير والرخاء لتعجل الأجر والراحة
والفضيلة ولم يتعب نفسه بحزنه عن هم ما فوقها أعجز
لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة ٥

فصل في مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه فإن أعجب بفضائله
فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة فإن خفيت عليه
عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته
إلى
الأبد وأنه أتم الناس نقصا وأعظمهم عيوبا وأضعفهم
تمييزا وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولا عيب أشد
من هذا لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها
وسعى في قمعها والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه
إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته وإما لأنه
يقدر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض ٥

وفي الناس كثير يفخرون بالزنى واللياطة والسرقة والظلم
معجب بتأتي هذه النحوس له وبقوته على هذه المخازي
واعلم يقينا أنه لا يسلم إنسي من نقص حاشا الأنبياء
صلوات الله عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط
وصار من السخف والضعة والرذالة والخسة وضعف
التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف
من الأرذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة، فليتدارك
نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها
وعن عيوب غيره التي لا تضره، لا في الدنيا ولا في الآخرة،
وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة سوى الاتعاظ بما
يسمع المرء منها فيجتنبها ويسعى في إزالة ما فيه منها
بحول الله تعالى وقوته **وأما** النطق بعيوب الناس
فعيب كبير لا يسوغ أصلا والواجب اجتنابه إلا في نصيحة
من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب أو على سبيل تبكيت
المعجب فقط في وجهه لا خلف ظهره، ثم يقول للمعجب ارجع
إلى نفسك فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تمثل
بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها فتستسهل
الرذائل وتكون مقلدا لأهل الشر وقد ذم تقليد أهل الخير
فكيف تقليد أهل الشر لكن مثل بين نفسك وبين من هو
أفضل منك فحينئذ يتلف عجبك وتفيق من هذا الداء
القبيح الذي يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا
شك من هو خير منك فإذا استخففت بهم بغير حق استخفوا
بك بحق لأن الله تعالى يقول وجزاء سيئة سيئة مثلها
فتولد على نفسك أن تكون أهلا للاستخفاف بل على
الحقيقة مع مقت الله عز وجل وطمس ما فيك من فضيلة.
فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تمر بخاطرك

وفي أضاليل الأماني الطائفة بك فإنك تعلم تقدم غفلتك
حينئذ وإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك
وأخطائها ولا تستأنف في كل رأي قررته صوابا فتخرج
بخلاف نفسك وأصاب غيرك وأخطأت أنت فإنك إن
فعلت ذلك فأقل أحوالك أن تعارض صوابك
بصوابه فتخرج لا لك ولا عليك والأغلب أن خطأك أكثر
من صوابك وهكذا كل أحد من الناس بغير النبيين صلوات
الله عليهم. وإن أعجبت بعملك فتفكر في معاصيك وفي
تقصيرك وفي معايبك ووجوهه فوالله لتجدن من ذلك
ما يغلب على خيرك ويعفي على حسناتك فليطل همك حينئذ
وأبدل من العجب تنقصا لنفسك. وإن أعجبت بعلمك
فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة مجردة وهبك
إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك

ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما قد علمت وحفظت
ولقد أخبرني عبد الملك بن طريف وهو من أهل العلم
والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث أنه كان ذا حظ
من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعا دته
وأنه ركب البحر فمر به فيه هول شديد أنساه أكثر ما كان
يحفظه وأخل بقوة حفظه إخلالا شديدا لم يعاوده ذلك
الذكاء بعد **وأنا** أصابتني علة فأفقت منها وقد ذهب
ما كنت أحفظ إلا ما لا قدر له فما عاودته إلا بعد أعوام
واعلم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يجدون في القراءة
والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظا
فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره
فوقه فصح أنه موهبة من الله تعالى فأي مكان للعجب
ههنا ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى

وانتزاعه من نعمه واستغنائه من تملكهما، ثم تفكر أيضا
في أن ما خفي عنك وجهلته من أنواع العلوم ثم من أصناف
علمك الذي تختص به والذي أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من
ذلك فاجعل مكان العجب استنقاصا لنفسك واستقصارا
لها فهو أولى وتفكر في من كان أعلم منك تجدهم كثيرا
فلتهن نفسك عندك حينئذ وتفكر في إخلالك بعلمك وأنك
لا تعمل بما علمت منه فعلمك عليك حجة حينئذ ولقد كان أسلم
لك لو لم تكن عالما واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأسلم
حالا وأعذر فليسقط عجبك بالكلية ثم لعل علمك الذي
تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة
فيها كالشعر وما جرى مجراه فانظر حينئذ إلى من علمه
أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فتهون نفسك
عليك وإن أعجبت فتفكر فيمن هو أشجع منك ثم انظر
بشجاعتك

في تلك النجدة التي منحها الله تعالى فيم صرفتها فإن كنت صرفتها
في معصية فأنت أحمق لأنك بذلت نفسك فيما ليس ثمنا لها
وإن كنت صرفتها في طاعة فقد أفسدتها بعجبك ثم تفكر
في زوالها عنك بالشيخ وأنك إن عشت فستصير في عدد
العيال وكالصبي ضعفا على أني ما رأيت العجب في طائفة
أكثر منه في أهل الشجاعة فاستدل بذلك على تعاظم
أنفسهم ورفعتها وعلوها وإن أعجبت بجاهك في دنياك
فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء وضعفاء
سقاط فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ولعلهم ممن يستحيا
من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم
ومنابتهم فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك
وإن كنت مالك الأرض كلها ولا مخالف عليك وهذا بعيد
جدا في الإمكان فما نعلم أحدا ملك معمور الأرض كله على قلته

وصغر مساحته بالإضافة إلى عامرها فكيف إذا أضيف
إلى الفلك المحيط فتفكر في ما قال ابن للرشيد وقد دعا السماك
بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا أمير المؤمنين
فلو منعت عنك الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها فقال له
الرشيد بملكي كله قال له يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها
منك بكم كنت ترضى تفتدي من ذلك قال بملكي كله قال
يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء
وصدق ابن السماك رحمه الله **وإن كنت** ملك المسلمين كلهم
فاعلم أن ملك السودان وهو إنسان أسود مكشوف العورة
جاهل يملك أوسع من ملكك وإن قلت أنا أخذته بحق فلعمري
ما أخذته بحق إذا استعملت فيه رذيلة العجب وإذا لم تعدل
فيه فاستحي من حالك فهي حالة رذالة لا حالة يجب العجب
بها **وإن أعجبت** بمالك فهذه أسوأ مراتب العجب فانظر

في كل ساقط خسيس هو أغنى منك ولا تغتبط بحالة يفوقك
فيها من ذكرت واعلم أن عجبك بالمال حمق لأنه أحجار
لا تنتفع بها إلا أن تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها
فقط والمال أيضا غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه
في يد غيرك ولعل ذلك يكون في يد عدوك فالعجب بمثل هذا
سخف والثقة به غرور وضعف **وإن أعجبت** بحسنك
ففكر في ما يؤول عليك مما نستحي نحن من إثباته وتستحي
أنت منه إذا ذهب عنك بدخولك في السن وفي ما ذكرنا
كفاية **وإن أعجبت** بمدح إخوانك لك ففكر في ذم
أعدائك إياك فحينئذ ينجلي عنك العجب فإن لم يكن لك
عدو فلا خير فيك ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو
له فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد
عليها عافانا الله. فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها

لو صرفته إلى الناس وشغل البلاء عنهم عليها فضيلة تحصل
وتعرف قدر نفسك إن كانت لك مسكة من تمييز واعلم
بأنك إن تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الأخلاق
من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس فستيقن منح الله
وعونا بغير على أمره أبدا لا خصلة فيها وإنما هي منح من
الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك وأنك لو وكلت
إلى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل إعجابك بها شكرا
لواهبك إياها وإشفاقا من زوالها فقد تتغير الأخلاق
الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم وارحم
من منع ما منحت ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاطي
على واهبها تعالى وبأن تجعل لنفسك فيما وهب خصلة أو حقا
فتعير أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا
ولقد أصابتني علة شديدة ولدت علي ربوا في الطحال

شديدا فولد ذلك علي من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر
والنزق ولما حاسبت نفسي فيه إذ أنكرت تبدل خلقي واشتد
عجبي من مفارقتي لطبعي وصح عندي أن الطحال موضع الفرح
إذا فسد تولد ضده **وإن أعجبت** بنسبك فهذه أسوأ من كل
ما ذكرنا لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلا في دنيا
ولا أخرى وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة
أو ينفعك في آخرتك ثم انظر إلى من يساهمك في نسبك وربما
فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام
ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة
ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر
ملوك الإسلام فتأمل غبراتهم ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك
تجدهم أمثال الكلاب خساسة وتلقهم في غاية السقوط
والرذالة والتبذل والتحلي بالصفات المذمومة فلا تغتبط

بمنزلة هم فيها نظراؤك أو دونك أو فوقك ثم لعل الآباء الذين
تفخر بهم كانوا فساقا وشربة خمور ولاطة ومتعبثين ونوكى
أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظلما وآثارا
قبيحة تبقى بها عارهم على الأيام ويعظم إثمهم والندم
عليها يوم الحساب فإن كان ذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من
ذلك داخل في العيب والخزي والعار والشنار لا في الإعجاب
فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخلى يدك من فضلهم
إن لم تكن أنت فاضلا وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة
إن لم تكن محسنا والناس كلهم ولد آدم الذي خلقه الله تعالى بيده
وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم
وفيهم كل معيب وكل فاسق وكل كافر وإذا فكر
العاقل في أن فضل آبائه لا يقربه من ربه تعالى ولا يكسبه
وجاهة لم يحزها هو بسعيه أو بفضله في نفسه ولا مالا

فأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب
بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه
وكما تقول العامة في أمثالها كالخصي يزهى بذكر أبيه **فإن**
تعدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك لأنه
قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب ثم إن امتدحت
بحق فكيف إن امتدحت بالكذب وقد كان ابن نوح وأبو
إبراهيم وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم أقرب
الناس من أفضل خلق الله تعالى ومن الشرف كله في اتباعهم
فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن ولد لغير رشدة من كان في الغاية
في رياسة الدنيا كزياد وأبي مسلم ومن كان نهاية في الفضل
على الحقيقة كبعض من نجله عن ذكره في مثل هذا الفصل ممن
يتقرب إلى الله تعالى بمحبته والاقتداء بحميد آثاره **وإن**
أعجبت بقوة جسمك فتفكر في أن البغل والحمار والثور

أقوى منه وأحمل للأثقال وإن أعجبت بخفتك فاعلم أن الكلب والأرنب يفوقانك في هذا الباب فمن العجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق **واعلم** أن من قدر في نفسه عجبا أو ظن لها على سائر الناس فضلا فلينظر إلى صبره عندما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة فإن رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز وإن رأى نفسه صابرا فليعلم أنه لم يأت بشيء يسبق فيه على من ذكرنا بل هو في ذلك إما متأخر عنهم وإما مساو لهم ولا مزيد. **ثم** لينظر إلى سيرته وعدله وجوره فيما خوله الله تعالى من نعمة أو مال أو خول أو دابة أو أهل أو جاه فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجد مما خالفه في العدل فليعلم أن أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخولين أكثر مما هو فيه أفضل منه وإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعاقل يعدل عن العجب البتة لعلمه بعظائم الأشياء ومعالي الأخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين فإن أعجب فلم يعدل بل قد مال إلى جهة الإفراط المذمومة **واعلم** أن التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله تعالى أمره من خول أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل لأن العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغالبه أكفاؤه في القوة ونظراؤه في المنعة وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ أو بقصع برغوث أو بفرك قملة وحسبك بهذا ضعة وخساسة **واعلم**

أن رياضة النفس أصعب من رياضة الأسد لأن الأسد إذا
سجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك أمن شرها والنفس
وإن سجنت لم يؤمن شرها **والعجب** أصل يتفرع منه
التيه والزهو والكبر والنخوة والتعاطي وهذه أسماء
واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على
أكثر الناس فقد يكون العجب بفضيلة في المعجب فمنهم
من معجب بعلمه فيتفيهق ويتعلى على الناس ومن معجب
بعمله فيترفع ويتعاطى ومن معجب برأيه فيزري على
غيره ومن معجب بنسبه فيتيه ومن معجب بجاهه
وعلو حاله فيتكبر ويتجبر **وأقل** مراتب العجب أن تراه
يتوقى عن التحمد في مواضع الحمد وعن تحية المكافات
وعن الكلام إلا فيما لا بد منه من أموره تيها وعيب هذا
أقل من عيب غيره ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل

على

الاقتصار الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجبا
لحمده ولكنهم إنما يفعلون هذا احتقارا للناس وإعجابا
بأنفسهم فيحصل لهم بذلك استحقاق الذم وإنما الأعمال
بالنيات ولكل امرئ ما نوى حتى إذا زاد الأمر ولم يكن ثم عاقل
مميز يحجب عن توغله العجب حقه ولا عقل حاجز
منع الظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام
وفي المعاملة حتى إذا زاد ذلك وضعف التمييز في العقل
ترقى مما ذكر إلى الاستطالة على الناس بالأذى باللسان واليد
والتحكم والظلم والتغلب واقتضاء الطاعة لنفسه
والخضوع لها إن أمكنه وإلا فإن لم يقدر على ذلك
اكتفى بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم
وقد يكون العجب لغير معنى ولغير فضيلة في المعجب فمن هذا
من عجيب ما يقع في هذا الباب ومن شنيع ما نسميه عامتنا

التميز وكثيرا ما تراه في النساء وفي من عقله قريب من
عقول النساء من الرجال وهو عجب من ليس فيه خصلة أصلا
لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا نسب رفيع ولا مال
يطغيه وهو مع ذلك يعلم أنه صفر من كل ذلك لأن هذه أمور
لا يغلط فيها من لا يعرف بالجملة وإنما يغلط فيها
من له أدنى حظ منها فربما يتوهم إن كان ضعيف العقل
أنه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم
فقط يظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب معرق في قومه ويحسبهم
لم يكونوا أنذالا رعاعا في كلهم فيحسب أنه لو كان ابن فرعون
ذي الأوتاد ما زاد على العجب الذي هو فيه أو له شيء من
فروسية فهو يقدر أنه قد هزم عليا وابن الزبير ويقتل
خالدا أو له شيء من جمال رذل فهو لا يرى الاسكندر على حال
أو يكون قويا على أن يكتسب ما يتوهم من مال يفضل

عن قوته فلو أخذ بقرني الشمس لم ير أنه على ما هو فيه
ولقد يكثر العجب من هؤلاء وإن كانوا عجبا لكن ممن
لا حظ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه
ولا نجدة بل تراه في كفالة غيره ومهتضما لكل من له أدنى
كافة وهو يعلم أنه خال من كل هذا وأنه لا حظ له في شيء
منه ثم هو مع ذلك في حالة الزهو والتيه، **ولقد تأملت**
الى هؤلاء فتعرضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره
للناس فما وجدت عنده مزيدا على أن قال لي أنا حر لست
عبد أحد فقلت له أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة
فهم أحرار مثلك الا قوما من العبيد هم أطول يدا منك
وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الأحرار فلم أجد عنده
زيادة فرجعت الى تفتيش أحوالهم ومراعاتها فتفكرت
في هذه الأشياء لأعلم السبب الباعث لهم على هذا

العجب الذي لا ينتبه له فلم أر أخبث ما تنطوي عليه
نفوسهم مما بدا ومن أحوالهم ومن مراميهم في كلامهم
ما استقر أمرهم على أنهم يعتقدون أن عندهم فضل عقل
وتمييز وأنهم أهل لو أمكنتهم الأيام من تصريفه لوجدوا
متسعا ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على
سائر الناس ولو ملكوا أموالا لأحسنوا تصريفها ممن ملكها
فتسبب التيه لهم وتنزل العجب فيهم وصار اتكال
للكلام فيه شعب عجيب وعارضة معترضة ومنه أنه
ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى قوي ظنه
في أنه قد استولى عليه واشتد تعمقه في أنه قد كمل فيه
إلا العقل والتمييز حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران [illegible]
الطافح يشعران بالصحو والخامل الناقص يزري بالحكماء
العلماء والصبيان الصغار يتحكمون بالكهول والسفهاء

العابدين يستخفون بالعقلاء المتطوين وضعفة النساء
يستنقص عقول أكابر الرجال وآرائهم وبالجملة وكلما
نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلا وأكمل
ما كان تمييزا ولا يعرض هذا في سائر الفضائل فإن العاري
منها جملة يدري أنه عار منها وإنما يدخل الغلط على
من له أدنى حظ منها وإن قل فإنه يتوهم حينئذ إن
كان ضعيف التمييز أنه عالي الدرجة فيه ودواء من
من عم كزنا العقل والخمول فلا دواء أنجع لهم منه ولا
قد أنهم وضربهم على الناس عندهم حدا ولا يجزيهم إلا
عما بين الناس وقاعين في الأعراض مستهزئين بالجميع
مغتابين للجلساء متسلطين على الفضول وربما كانوا مع ذلك
متعرضين للمنافسة والممارسة وربما قصروا إلى الملاحمة
والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم وقد يكون

العجب مكنا في المرء حتى إنه أخطأ على أنه نجا، أو مال
ظهر داؤه عليه وعجز عقله عن فهمه وستره، ومن
غريب ما رأيت في بعض أهل الضعف أن منهم من يغلبه
ما به من محبته ولده الصغير وامرأته حتى يصفهما بالعقل
في المحافل وحتى إنه يقول هو أعقل مني وأنا أتبرك
بوصيتهما. وأما مزحه إياهما بالجمال والحسن والعافية
فكثير في أهل الضعف جدا حتى إنه لو كان يحاكيهما لما
ما زاد على ما يقول في تعجيب السامع لوصفه لما فيهما
ولا يكون هذا إلا في ضعيف العقل عار من العجب بنفسه
إياك والامتزاح فإن كل من يستمعك لا يصدقك وإن
كنت صادقا بل يجعل ما سمع منك من الذي أو تعابيك
وإياك ومزح أحد وخبثه فإنه فعل أهل الملق
وضعة النفوس. وإياك ومماراة أحد لا يعرفه ولا

في معيبه فلك في إصلاح نفسك شغل. وإياك والتفاقر
فإنك لا تحظى من ذلك إلا على تكذيبك أو احتقار من يسمعك
ولا منفعة لك من ذلك أصلا إلا كفر بنعمة ربك تعالى
أو شكواه إلى من لا يرحمك. وإياك ووصف نفسك باليسار
فإنك لا تزيد على إطماع السامعين فيما عندك ولا تزيد
على شكر الله تعالى وذكر نعمه إليك وغناك عمن
دونه فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما
عندك. **العاقل** هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه
من تشت للناس الطمع فيما عنده لم يحط إلا على
أن ينزله لئيم ولا غاية لسرا أو يمنعهم فيلوم ويعادونه
وإذا أردت أن تعطي أحدا شيئا فليكن ذلك منك قبل
أن يسألك فهو أكرم وأنزه، وأوجب للحمد من بديع
ما يقع في الحسد قول الحاسد إذا سمع إنما يعرب

في علم ما هذا شيء بارد لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد
وإن سمع من يقول ما قد قاله غيره قال هذا بارد وقد قيل
قبله وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود
على طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من
الجهال **الحكيم** لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع
بل يظنه خبيثا مثله وقد شاهدنا أقواما ذوي طبائع
ردية وقد تصوروا في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على
مثل طبائعهم لا يصدقون أصلا بأن أحدا هو سالم من
رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوأ ما يكون من فساد
الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن هذه صفته لا ترجى
له معافاة أبدا وبالله التوفيق **العدل** حصن يلجأ
إليه كل خائف وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا
رأى من يظلمه دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ

وذمه ولا ترى أحدا يذم العدل فمن كان العدل في طبعه
فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين **الاستهانة** نوع
من أنواع الخيانة إذ قد يخونك من لا يستهين بك ومن
استهان بك فقد خانك الإنصاف وكل مستهين خائن
وليس كل خائن مستهينا. الاستهانة بالمتاع دليل على
الاستهانة برب المتاع **حالان** يحسن فيهما ما يقبح
في غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فإنه يحسن فيهما
تعديد الأيادي وذكر الإحسان وذلك غاية القبح
فيما عدا هاتين الحالتين **لا عيب** على من مال بطبعه
إلى بعض القبائح ولو أنه أشد العيوب وأعظم الرذائل
ما لم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد ممن
أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد
إلا عن قوة عقل فاضل **الخيانة** في الحرم أشد من

الخيانة في الرماء. **العرض** أعز على الكريم من المال
ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله ويصون نفسه
بجسمه ويصون عرضه بنفسه ويصون دينه بعرضه
ولا يصون بدينه شيئا أصلا. **الخيانة** في الأعراض
أخف من الخيانة في الأموال وبرهان ذلك أنه لا يكاد
يوجد من لا يخون في العرض وإن قل ذلك منه وكان من
أهل الفضل. وأما الخيانة في المال وإن قلت أو كثرت فلا
تكون إلا من رذل بعيد عن الفضل. **القياس** في أحوال الناس
ظن يكذب في أكثر الأمور ويصدق في الأقل واستعمال ما
تبين صحته في الدين لا يجوز. **العاقل** يرضى أن يغبن
عقله ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن في ماله فيخطئ
في الوجهين جميعا. **لا** يكره الغبن في ماله ويستعظمه
إلا لئيم الطبع دنيء الهمة مهين النفس. **من** جهل

معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر الله تعالى ورسوله
صلى الله عليه وسلم فإنه يحتوي على جميع الفضائل. **رب**
مخوف كان التحفظ منه سببا لوقوعه ورب سر كان
المبالغة في كتمه علة انتشاره. ورب إعراض أبلغ في
الاستمالة من إدامة النظر. وأعلم الذي كله الإفراط الخارج
عن حد الاعتدال. **الفضيلة** وسط بين الإفراط
والتقصير وكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة
حاشى العقل فإنه لا إفراط فيه. **الخطأ** في الحزم خير من
الخطأ في التضييع. **من** العجائب أن الفضائل مستحسنة
مستثقلة والرذائل مستقبحة مستخفة. **من** أراد
الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فإنه يلوح له
وجه تعسفه. **حد** الحزم معرفة الصديق من العدو
وغاية الخرق والضعف جهل العدو من الصديق. **لا** تسلم

عدوّك لظلمٍ ولا تظلمه وساوِ في عدلك بينه وبين الصديق
وتحفّظ منه وإياك وتقريبه وإعلاء قدره فإن هذا من
أفعال النوكى **من** ساوى بين عدوه وصديقه في القرب
والرفعة لم يزد على أن زهّد الناس في مودته وسهّل
عليهم عداوته ولم يزد على استضعاف عدوه له وتمكينه
من مقاتله وإفساد صديقه على نفسه وإلحاقه بجملة
أعدائه **غاية** الخير أن يسلم عدوك من هلكه ومن
تركك إياه للهلك وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قرب
منهم التلف :. وغاية الشر أن يسلم صديقك من هلكه
وإنما إتعابه فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه
الشقاء **ليس** الحلم تقريب العدو ولكنه مسالمتهم مع
التحفظ منهم **كم** رأينا من قاهر بما عنده من المتاع
كان عدوه سببا لهلاكه فإياك وهذا الباب الذي هو ضرٌّ
محضٌ لا منفعة فيه أصلا **كم** شاهدنا ممن أهلكه كلامه
ولم نر قط أحدا ولا سمعنا أنه أهلكه سكوته فلا تتكلم إلا
بما يقربك من خالقك فإن خفت ظالما فاسكت **فلما**
رأيت أمرا أنكر وقبح إلا فات فلم يمكن تغيره **محن**
الإنسان في دهره كثيرة وأعظمها محنته بأهل نوعه من
الإنس **داء** الإنسان من الناس أعظم من دائه في السباع
الأكلة والأفاعي الضارية لأن التحفظ من كل ما ذكرنا
ممكن ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا **الغالب**
على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك
عندهم إلا من نافقهم **لو** قال قائل إن في الطباع كرية
لأن افتراق الأضداد يلتقي لم يبعد من الصدق وقد
نجد نتائج الأضداد تتساوى فنجد المرء يبكي من الفرح
ومن الحزن ونجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة

في تتبع العثرات وقد يكون ذلك سببا للقطيعة عند
من عدم الصبر والإنصاف **كل** من غلبت عليه طبيعة
ما فاته وإن بلغ الغاية من الحزم والحذر فإنه مخدوع
إذا كوبر من قبلها **كثرة** الريب تعلم صاحبها الكذب
لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب فيقضى عليه
ويستسهله **أعدل** الشهود على الممنوع على
الحزن وجهه لظهور الاستكانة عليه إذ وقع
في كربه أو مهم بها . وأعدل الشهود على الكذاب
لسانه لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضا . المصيبة
في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به . **أشد**
الناس استعظاما للعيوب بلسانه هو أشدهم استهتارا
لها بفعله ويتبين ذلك في مساجلة أهل البذاء
ومشاتمات الأرذال الثلب والعيب عادة الرذل الذي من الصناعات

الخسيسة من الرجال والنساء كأهل التغني بالزمير وكنس الحشوش
والخادم من في المجازر وسالكي دور الحمل المتاحات لكراء
الجماعات والناسبة للزواني فإن كل من ذكرنا أشد
العلن بما من بعضهم لبعض بالقبائح وأكثرهم غضبا
بالفضائح وهم أوقع الناس فيها وأشبههم بها **اللقا**
يذهب بالتحابب وكأن نظر العين إلى العين يصلح القلوب
فلا يفسد النقاء صريعا بعدو لك فإن الذي يعني أغنى
عنه **أشد** الأشياء على الناس الخوف والهم
والمرض والفقر وأشدها كلها إيلاما للنفس الهم للفقد
من المحبوب وتوقع المكروه ثم المرض ثم الخوف ثم
الفقر ودليل ذلك أن الفقر يستعمل لطرد به الخوف
فيبذل الإنسان ماله كله ليأمن والخوف والفقر يستعملان
لطرد بهما ألم المرض فيغرر الإنسان في طلب الصحة ويبذل

فالله فيما إنما أشفق من الموت وتَوَدُّ عن نفسه به لو بذل ماله كلّه ويسلم ويبقى والخوف يستأصل ليطرد به الهمّ فيغرر المرء بنفسه ليطرد عنها الهمّ **وأشدّ** الأمراض كلها ألما وجع ملازم في عضو ما بعينه. وأمّا النفوس الكريمة فالذلّ عندها أشدّ ممّا ذكرنا وهو أشدّ العقوبات عند ذوي النفوس الكريمة. ومما قلته في الأخلاق:

إنّما العقل أساس فوقه الأخلاق سور
وحُلى العقل بالعلم وإلّا فهو بور
جاهل الأشياء أعمى لا يرى حيث يدور
وتمام العلم بالعدل وإلّا فهو زور
وزمام العدل بالجود وإلّا فهو جور
وملاك الجود بالنجدة والجبن غرور

عفّ إن كنت غيورا ما زنى قطّ غيور
وكمال الكلّ بالتقوى وقول الحقّ نور
ذي أصول الفضل عنها حدثت بعد البدور

وأيضا

زمام أصول جميع الفضائل عدل وفهم وجود وبأس د
فعن هذه ركّبت غيرها فمن حازها فهو في الناس راس د
كذا الرأس فيه الأمور التي بإحساسها يكشف الالتباس د

فصل في غرائب أخلاق النفس

ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكيه وشدّة تلوّيه وتقلّبه وبكائه فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنّه الظالم المعتدي المفرط الظلم ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكّي مظهرا لقلّة المبالاة فيسبق إلى نفس من لا

تحقيق النظر أنه ظالم، وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ومغالبة ميل النفس جملة وأن لا يميل المرء مع صفة الذي ذكرنا ولا عليها لكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء. **من عجائب** الأخلاق أن الغفلة مذمومة وأن استعمالها محمود وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على الغفلة يستعملها في غير موضعها وفي حيث يجب التحفظ وهو مغيب عن فهم الحقيقة فدخلت تحت الجهل فذمت لذلك. وأما المتيقظ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا في موضعها الذي يذم فيه البحث والتقصي والتغافل فهم الحقيقة وإضراب عن الكشف واستعمال للحلم وتسكين للكره، فلذلك حمدت حالة التغافل وذمت الغفلة. وكذلك القول في إظهار الجزع وإبطانه وفي إظهار الصبر وإبطانه فإن إظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم لأنه عجز مظهر عن ملك نفسه فأظهر أمرا لا فائدة فيه بل هو مذموم في الشريعة وقاطع عما يلزم من الأعمال وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذي عليه حزن الجزع. فلما كان إظهار الجزع مذموما كان ضده محمودا وهو إظهار الصبر لأنه ملك للنفس واطراح لما لا فائدة فيه وإقبال على ما يعود وينفع في الحال وفي المستأنف. وأما استبطان الصبر فمذموم لأنه ضعف في الحس وقسوة في النفس وقلة رحمة وهذه أخلاق سوء لا تكون إلا في أهل الشر وخبث الطبيعة وفي النفوس السبعية الرديئة فلما كان ذلك نتيجة ما ذكرنا كان ضده محمودا وهو استبطان الجزع لما في ذلك من الرحمة والشفقة والفهم بقدر الرزية فصح بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء

جزوع النفس صبور الحس بمعنى الا يظهر في وجهه ولا
في جوارحه شيء من آثار الجزع. ولو علم ذو الراي
الفاسد ما استتر به من فساد تدبيره في السالف لانجح
بترك استعماله فيما يستانف وبالله التوفيق ٥

فصل في تطلع النفس الى المعرفة

ما نستر به عنها من كلام مسموع أو شيء مرئي أو الى
المزح ونفاذ الذكر مثل أنه لا يكاد يسلم منهما أحد
إلا الساقط الهمة جدا أو من راض نفسه الرياضة التامة
وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا ومداواة شره
النفس الى سماع كلام تستر به عنها أو رؤية شيء
أكتتم عنه ونا أن يفكر في ما غاب عنها من هذا النوع
في غير موضعه الذي هو فيه بل في أقطار الأرض
المتباينة فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون

عديم عقل البتة وإن لم يهتم لذلك فمثل هذا الذي اختفى به
عنه الا كسائر ما غاب عنه منه سواء سواء ولا فرق ثم
لتهم اجتماعا على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه يا نفس
أرأيت لو لم تعلمي أن ها هنا شيئا أخفي عنك أكنت تتطلعين
الى معرفة ذلك فلا تترمزي ولا فليقل لنفسه وكوني الآن كما
كنت تكونين لو لم تعلمي أن ها هنا شيئا ستر عنك ففي هذا
الراحة وطرد الهم وألم القلق وفتح صفة الشر وتلك
غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأغراض فاضلة سنية يرغب
العاقل فيها ولا يزهد فيها الا تام النقص وأما من
علق همته وفكره بأن يعرف اسمه في البلاد ويبقى
ذكره على الدهور فليتفكر في نفسه وليقل لها
يا نفس أرأيت لو ذكرت بأفضل الذكر في جميع أقطار
المعمور أبد الأبد الى انقضاء الدهور ثم لم يبلغني ذلك

ولا عرفت به أكان لي في ذلك سرور أو غبطة أصلاً
فلا بد من لا ولا سبيل إلى غيرها ألبتة فإذا صح ذلك وتيقن
فليعلم يقيناً أنه إذا مات فلا سبيل له إلى علم أنه يذكر
أو أنه لا يذكر وكذلك لو كان حياً إذا لم يبلغه ثم ليتفكر
أيضاً في معنيين عظيمين أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من
الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولاً الذين لم يبق
لهم على ظهر الأرض عند أحد من الناس اسم ولا رسم ولا ذكر
ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه ثم من الفضلاء الصالحين من
أصحاب الأنبياء والزهاد ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار
وملوك الأمم الدائرة وبناة المدن الخالية وأتباع الملوك
الذين أيضاً قد انقطعت أخبارهم فلم يبق لهم عند أحد
علم ولا لأحد بهم معرفة أصلاً ألبتة فهل ضر من كان فاضلاً
منهم عند الله أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حط

درجتهم عند ربهم عز وجل ومن جهل هذا الأمر فليعلم
أنه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملك الأجيال السالفة أبعد
مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني إسرائيل فقط ثم ما بأيدينا
من تاريخ ملوك يونان والفرس وكل ذلك وكل ذلك لا
يتجاوز ألفي عام فأين ذكر من عمر الدنيا قبلها وأي البشر
فرد ثم فني وانقطع ونسي ألبتة وكذلك قال تعالى ورسلاً
لم نقصصهم عليك وقال تعالى وقروناً بين ذلك كثيراً وقال
تعالى والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله فهل الإنسان وإن
ذكر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين
ذكروا ثم نسوا جملة . ثم ليتفكر الإنسان فيمن ذكر بخير
أو بشر هل يزيده ذلك عند الله تعالى درجة أو يكسبه
فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته فإذا كان كما قلنا
فالرغبة في الذكر رغبة غرور لا معنى له ولا فائدة فيه

أفلا أكون إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار
من الفضائل وأعمال البر التي يستحق من أجلها الذكر
الجميل والثناء الحسن والمدح وجميل الصفة فهي التي
تقربه من بارئه تعالى وتجعله مذكورا عنده عز وجل
الذكر الذي ينفعه ويحصل على مآثره ولا يبيد أبدا
الأبد وبالله التوفيق **شكر** المحسن فرض واجب
وإنما يكافأ بالمعارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ثم التهمم
بأموره والتأتي لحسن الدفاع عنه ثم بالوفاء له حيا
وميتا ولمن يتصل به من ساقة وأهل كذلك ثم بالتمادي
على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطي مساويه
ما دمت حيا وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك وليس
من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته في ما يوقع
عيبه وذمته بل من عاون من أحسن إليه على باطل

فقد غشه وكفر إحسانه وظلمه وجحد إنعامه. وإنما
كان إحسان الله تعالى وإنعامه على كل أجل أعظم وأقدم
وأسنى من نعمة كل منعم دونه فهو تعالى الذي شق لنا الأبصار
الناظرة وفتق فينا الآذان السامعة ومنحنا الجوارح الفاعلة
ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا
وسخر لنا ما في السماء والأرض من الكواكب والعناصر ولم
يفضل علينا من خلقه شيئا غير ملائكته المقربين الذين هم
عمار السماوات فقط فأين تقع نعم المنعمين من هذه النعم
فمن قابل شكر محسنه إليه بمساعدته على باطل أو بمحاباته
بما لا يجوز فقد كفر نعمة أعظم المنعمين عليه وجحد إحسان
أجل المحسنين إليه ولم يشكره ولكن الشكر حقا والأجر أفضل
المحسن أصلا وهو الله تعالى ومن حال بين المحسن إليه وبين
الباطل وأقامه على مر الحق فقد شكره حقا وأدى واجب

حقه عليه مستوفى ولله الحمد أولا وآخرا وعلى كل حال

في حضور مجالس العلم

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما وأجرا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشيعها أو غريبة تشنعها فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العلم أبدا. فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيرا على كل حال فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك. فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس فإن لم تفعل فسل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع المحاسن وعلى خامسة وهي استزادة

العلم **وصفة** سؤال المتعلم هو أن تسأل عما لا تدري لا عما تدري فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى إلى اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول فيجب عليك ألا تكون فضوليا فإنها صفة سوء فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام وإن لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم فقل له لم أفهم واستزده فإن لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه وإلا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريد من الزيادة. والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا فإن لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك أو المعارضة بما لا يراه خصمك

معارضة فأمسك فإنك لا تحصل بتكراره إلا على أذى
زائد ولا على تعليم ولا على تعلم بل على الغيظ لك ولخصمك
والعداوة التي ربما أدت إلى المضرات **وإياك**
وسؤال المعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة
بغير علم فهما خلقا سوء دليلان على قلة الدين وكثرة
الفضول وضعف العقل وقوة السخف وحسبنا الله
ونعم الوكيل **وإذا** ورد عليك خطاب بلسان أو
هجمت على كلام في كتاب فإياك أن تقابله مقابلة
المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتيقن بطلانه
ببرهان قاطع **وأيضا** فلا تقبل عليه إقبال المصدق
به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع
فتظلم في كلا الوجهين نفسك وتبعد عن إدراك
الحقيقة ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن

النزاع عنه والنزوع إليه لكن إقبال من يريد حظ نفسه
في فهم ما سمع ورأى والتزيد به علما وقبوله إن كان
حسنا أو رده إن كان خطأ فمضمون لك إذا فعلت ذلك
الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم مع الوقوف على
الحقيقة في أغلب الأمر **من** اكتفى بقليله عن كثير
ما عندك فقد ساواك في الغنى ولو أنك قارون حتى إذا
تساويتما في الكسب عن ما تشتهي أنت إليه فقد رجحت الغنى
منك بكثير ومن قنع عما تجمع إليه من أمور الدنيا
فهو أعز منك بكثير **فرض** على الناس تعلم الخير والعمل
به فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا ومن
علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك
العمل به فخلط عملا صالحا وآخر سيئا وهو خير من آخر
لم يعلمه ولم يعمل به فهذا الذي لا خير فيه أمثل حالة وأقل

ذمّا من أمر ينهى عن تعليم الخير ويصد عنه ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ولا أمر بالخير إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شر ولا أمر بخير بعد النبي صلى الله عليه وسلم وحسبك بمن أدى رأيه إلى هذا فسادا وسوء طبع وذم حال وبالله التوفيق

قال أبو محمد رضي الله عنه فاعترض علينا إنسان فقال كان الحسن رضي الله عنه إذا نهى عن شيء لا يأتيه أصلا وإذا أمر بشيء كان شديد الأخذ به وهكذا تكون الحكمة وقد قيل أقبح شيء في العالم أن يأمر بشيء لا يأخذ به في نفسه أو ينهى عن شيء يستعمله

قال أبو محمد كذب قائل هذا وأقبح منه من لم يأمر بخير ولا نهى عن شر وهو مع ذلك يفعل الشر ولا يفعل الخير. **قال أبو محمد** وقد قال أبو الأسود الدؤلي

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى بالعلم منك وينفع التعليم

قال أبو محمد إن كان أبو الأسود إنما قصد بالإنكار المجيء بما نهى عنه المرء وأنه يتضاعف قبحه منه مع نهيه عنه فقد أحسن كما قال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم. ولا نظن بأبي الأسود إلا هذا. وأما إن يكون نهى عن النهي عن الخلق المذموم فنحن نعيذ بالله من هذا فهو قول من لا خير فيه وقد صح عن الحسن أنه سمع إنسانا يقول لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله فقال الحسن ود إبليس أنه ظفر منا بهذه حتى لا ينهى أحد عن منكر ولا يأمر بمعروف **قال أبو محمد** صدق الحسن وهو قولنا أيضا جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير والعمل به وممن

يُبْصِرُ رُشْدَ نَفْسِهِ فَمَا أَحَدٌ إِلَّا لَهُ عُيُوبٌ إِذَا نَظَرَهَا شَغَلَتْهُ
عَنْ غَيْرِهِ وَتَوَفَّانَا عَلَى سُنَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
آمِينَ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . تَمَّ كِتَابُ الأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

To: www.al-mostafa.com